

المكتبة الثقافية
بيروت

أجاثا كريستي

الضحية

تعريب
عمر عبد العزيز أمين

المكتبة الثقافية
بيروت - لبنان

جميع الحقوق محفوظة
(للمكتبة الثقافية)

الطبعة الثانية

الضحية

الفصل الاول

كان الطلبة يسرعون فوق درج الجامعة ، وخلال أبوابها العريضة ، إلى البهو الفسيح حيث يتفرقون جماعات متجهين إلى قاعات المحاضرات المختلفة ، وقد خلا الفناء الخارجي منهم ، عندما قدمت فتاتان في ميعة الصبا تهرولان في لهفة .. لعلهما تأخرتا عن الموعد المقرر ، وان استاذهما ، رغم دماثة خلقه ولين جانبه ، لا يطيق البتة أن يحضر أحد طلبته بعد بدء المحاضرة ..

وانطلقتا مبهورتي الأنفاس تجتازان البهو الكبير في خطى سريعة ، فبلغت إحداهما قاعة المحاضرات التي تقصدانها ..

وغمغمت في ارتياح :

– شكراً لله !. لقد وصلنا في اللحظة الملائمة ..

ولكنها إذ استدارت المستحث رفيقتها ..

لم تجدها خلفها ..

بل رأتها وراء جمهرة من الطلبة وغيرهم كانوا يتدافعون إلى إحدى القاعات الأخرى !

فأسرعت عائدة نحوها تهتف بها في صبر نافذ :
– هيا بنا .. ألم يكف تأخيرنا حتى الآن ؟!
وكانت صاحبتها تقول :
– إنها محاضرة طبية ، ولكني لا أدري ما الذي يستجلب كل هؤلاء الناس لسماعها ، وبودي أن أعرف سر تهافتهم عليها ..
فأجابها شاب يرتدي معطفاً أبيض ..
كان يقف على مقربة منهما :
– إنها عن « التحليل الطبي لبواعث الجريمة » !
فتحولت إلى صديقتها تشير عليها بأن تدخلا لسماعها ، فسألت هذه مترددة :
– من المحاضر ؟

ولكن الجواب ضاع بين ضجيج الطلبة داخل القاعة ، وهم يصيحون طالبين إغلاق الباب !

وعندئذ جذبت الفتاة رفيقتها إلى الداخل حيث كان المدرج مكتظاً بعدد كبير من الحضور !

جلس معظمهم ممسكين بكراساتهم وأقلامهم .. متأهبين لتدوين المذكرات !

فقد تعلقت أبصارهم بالمحاضر ، وهو يقف فوق المنصة ساكناً رابط الجأش ، ينتظر حتى يستتب السكون بين الصفوف ..

وعجبت الفتاة إذ رأته رجلاً في مقتبل العمر ، أنيق الهندام ، يضع ربطة عنق زاهية الألوان غير مألوفة في المحيط الجامعي .. مما عهدت إلا تلك (الأرواب) الجامعية القاتمة التي يعلوها التراب ،

واللحى الموخطة بالشيب ، والعوينات السميكة ، وهي المظاهر التي يعرف بها أساتذة الجامعات !

وغمغمت تسأل من جديد :

– من المحاضر ؟

فأجاب طالب الطب نفسه :

– إنك تعرفينه .. فهو أستاذ جراحة المخ .. ولكنه سوف يلقي الآن محاضرة في علم النفس الجنائي ، الذي نبغ فيه .. ولو كنت مكانك لاستمعت اليه ، فهو محاضر جليل القدر ..

فلم يطل بها التردد ، وما لبثت أن جذبت زميلتها ومضتا تهبطان الدرج حتى وجدتا مكاناً يسعهما ..

وما من ريب في أن هذا المحاضر .. الجراح الذائع الصيت ، كان يجتذب عدداً وفيراً من المستمعين ..

فها هي القاعة تمتلىء بالطلبة ، من مختلف الكليات ، ومن جميع الأعمار ..

بل إنها لترى بينهم رجالاً وسيدات لا يمتون إلى الجامعة بصلة ، وإنما قدموا خصيصاً لسماع محاضرته ، وراحوا جميعاً يتطلعون اليه في في انتباه ويقظة ، ويتبعونه بنظراتهم وهو يتقدم نحو مقدمة المنصة في تمهل ، وقد وضع يديه في جيبي ردائه ، متفرساً بعينيه السوداوين العميقتين في الحضور برهة ..

ثم يبدأ حديثه في يسر واقتدار :

– إن تسعة أعشار الجرائم التي ترتكب في أية أمة متحضرة ، إنما ترد إلى أشخاص انحرفت عقولهم عن وضعها الطبيعي السليم .. اما لنشأتهم في بيئة فاسدة ، واما على أثر اختلال عصبي شديد .. فقليل هو عدد الجرائم التي يرتكبها أناس ولدوا شواذ ، وأقل منهم

أولئك المجرمون الذين تبقى عقلياتهم سليمة كل السلامة بعد ذلك ..

فتراخت الفتاة في مقعدها وقد راقت لها المحاضرة رغم أنهـا لا تفهم شيئاً من تلك المصطلحات الفنية ..

فقد كان صوت الأستاذ المحاضر عميقاً واضح النبرات ، رائع التموج يستأثر بمجامع القلوب ..

وكان قد انطلق في حديثه ، واستغرق في بسط نظريتـه ، وهو ينظر الى الحضور دون ان يراهم :

– ولعلكم تذكرون أن « الباعث » الذي اعتزمنا دراسته اليوم هو « الانتقام » .. فالمجرم العادي ، أو بالأحرى السليم العقلية ، انمـا يقترن غالباً بهذا النوع من الجرائم ..

فإن الانتقام ، أو الأخذ بالثأر ، يقترف عادة تحت تأثير عاطفـة حارة جياشة ..

ومن ثم ، فإن قوانين بعض الدول تغتفر هذه الجريمة فتعفيهـا من العقاب ..

وحتى لو ارتكبت في تدبير محكم ، وإصرار سابق ، فإن مرتكبها لا يعدم من يعطف عليه ويأخذه بالرفق والرأفة ..

فإن نظرتنا إلى الحياة والموت ليست إلا وليدة ما اصطلح عليـه العرف والاتفاق ، كسائر تقاليدنا وعاداتنا ..

ولعل الرجل الذي يترك عاطفته وعقيدته تدفعان به إلى الجريمة ، لا يكون مذنباً في شيء بأكثر من مخالفة هذا العرف ..

وسوف أحدثكم الآن عن رجل من هذا النوع ، وهو رجل متزن العقل ، سليم الادراك ، بل هو في الوقت ذاتـه عضو له قيمته في المجتمع ..

ولما كنت قد وجدت في مركز يسمح لي بدراسة الرجل والحادث

الذي وقع له أو وقع منه في أدق تفاصيله ، ثم متابعة كل حركة يأتيها وكل خطوة تهجس بنفسه ، فإني لا أرى سبباً يحول دون أن يستفيد العلم من هذه التجربة التي خبرتها بنفسي ..

ولعل الأفضل أن نطلق عليه إسماً مستعاراً ..

بل سوف نطلق على شخصيات هذه القصة جميعاً أسماء مستعارة ..

فليكن إسمه ..

وتمهل الحاضر قليلاً وهو يلوح بيده كأنما يبحث عن اسم ملائم ، وما لبث أن ابتسم في وقار ، واستطرد :

ـ ليكن اسمه جويس .. مايكل جويس ..

الفصل الثاني

كان مايكل جويس متزوجاً ، غير موفق في زواجه ، ويعيش منفصلاً عن زوجته ..

وكان طبيباً يشار اليه بالبنان في الأوساط الطبيـة ، يملك مستشفى خاصاً في هارلي ستريت ، فتنمو أعماله في نجاح مطرد ، وكلما ازدادت عليه وطأة العمل ازداد سعادة به وارتياحاً اليه ..

فلم يخطر بباله البتة ، وهو في عنفوان شبابه ، وأوج صحته ، وقمة شهرته ومجده ، أن ثمة ما ينقصه في الحياة ..

ولم يكن لفشل زواجه من أثر في نفسه ، وفي المرات القليـلة التي يلتقي فيها بزوجته ، كان لقاؤهما لا يعدو لقاء أي صديقين لا يبالي أحدهما بشؤون الآخر الخاصة ..

فيكفيه أنه كان قادراً على الانفاق عليها في سعة ، بينما يعيش هو عيشة راضية .

وفيما عدا الخدم الذين يحبونه حباً جماً ، كان يقيم بمفرده ، وانما في غير عزلة ..

فقد كانت له مكانته في المجتمع ، يشترك بنجاح في الحفلات والمآدب ، ويقضي أمسياته في النادي مع نخبة من أصدقائه المفضلين ..

وكانت له سليقة الرجل المثقف في تذوق الآداب والفنون ، كما كان هاوياً بارعاً في العزف على البيان ، يداعب أوتاره في أوقــات فراغه ، وكلما أراد أن يريح أعصابه المكدودة ..

وفيما عدا ذلك كله لم يكن يكلف بشيء قدر كلفه بعمله ومهنته ، فقد كان يحبه إلى درجة التقديس ، حباً خالصاً هو سر نجاحه فيه ذلك النجاح المطرد ..

ولذا لم يدر بخلده قط ، أن حياته الرتيبـة المنتظمة يمكن أن تتأثر يوماً من الأيام بأي مؤثر خارجي ..

وفي ذلك الصباح ، وقف مايكل جويس في حجرة الاستشارة الخاصة به ، ينتظر أحد مرضاه ، وقد أمسك بالخطاب الذي تلقاه لشأنه ، وراح يعيد قراءة التقرير المرافق له ..

وما لبثت سكرتيرته – مس مارش – أن فتحت البـاب ودخلت الحجرة ، تتقدم إحدى السيدات ومعها فتاة صغيرة ..

وقدر في نفسه أنها لا تتجاوز الاثني عشر عامـاً ، فقدمت السيدة قائلة في صوت خافت :

– مسز رايت ..

فصافحها الطبيب قائلاً في بشاشة :

– كيف حالك يا مسز رايت ؟

ثم التفت إلى الفتاة ذات الساقين النحيلتين ، التي كانت تنظر اليه بعينين زرقاوين جميلتين ، في نظرات جامدة لا حياة فيها ..

– أهذه ابنتك ؟

– نعم .. هذه هي آن .. وقد كتبت لك عنها .

فابتسم للفتاة مشجعاً وطلب اليها أن تجلس ..

ثم أجاب أمها :

- نعم .. لقد قرأت التقارير التي أرسلتها لي ..

واقترب من الفتـاة وراح يفرق خصلات شعرها الكستنائي الطويل الذي كان ينسدل على ظهرها !!

ومضى يفحص جرحاً قديماً بأعلى الجبهة ..

وما عتم أن سألها :

- أحسب أنها كانت جراحة عاجلة إثر غارة جوية ؟

- نعم ..

- وتشعرين الآن بضعف في البصر ؟

فقالت أمها :

- لقد ذكر أخصائي العيون أنهـا حالة ليست من اختصاصه ، ولا يستطيع معها شيئاً .

فترك شعر الفتاة ينساب من بين أصابعه ..

وسألها :

- هل يمكنك أن تقرئي ؟

- كلا .. فلست أرى الكتابة جيداً ..

فنظر اليها في إمعان ، قبل أن يغمغم ..

كأنما يحدث نفسه :

- إن أمامي تقرير اخصائي العيون ، الذي يقول فيه أنهـا حالة « اضمحلال مطرد لحاسة البصر دون سبب ظاهر » .

ثم تحول نحو الأم الشاحبة الوجه المقطبة الأسارير ..

وأردف :

- إنها حالة خطيرة يا مسز رايت .. ولا أرى إلا ان نأخذها إلى المستشفى ، فنجري عليها فحصاً دقيقاً لنتبين السبب الحقيقي لهذه العلة .. هل يسؤوك ذلك يا آن ؟

فشحب وجه الفتاة قليلا ..

ولكنها أجابت في شجاعة :

- كلا البتة !

وقالت مسز رايت :

- هل تريد أن نبدأ من الان ؟

- اظن ذلك ضروريا .. فلسنا نود ان يزداد ضعف نظرهـا حتى لا ينفع فيه علاج ..

ثم اخرج جهراً لفحص البصر وراح يفحص عيني الفتاة وهو يتحدث اليها في رفق ودعة ..

حتى إذا ما فرغ من فحصه ، واقتنع بالرأي الذي كونـه لنفسه ، اتفق مع مسز رايت على ان تدخل المستشفى للتو .

ثم ابتسم لهـا مطمئناً وهي تبارح الحجرة .. بعد ان رأى في عينيها لمحة من التوسل والضراعة لم تخالج نبرات صوتها مرة واحدة خلال حديثها معه ..

واجريت على آن اختبارات عديدة كانت تخضع لها في طاعـة واستسلام ، حتى اثارت إعجاب مايكل جويس ، إذ رأى فيها طفلة حسن خلقها واجيدت تنشئتها .

غير مدللة او مباهية بالثروة ..

وكانت امها تجلس يوماً بعد يوم في هدوء ورباطة جـأش فتنتظر نتيجة هذه الأبحاث دون ان تدع اللهفة التي تجيش في نفسهـا ان تبدو في كلمة او إيماءة واحدة ..

فلم يكن مايكل جويس في ذاك الحين يشعر بأثر في نفسه تجاه (إيما رايت) اكثر من انها سيدة وافرة الذكاء بادية الحسن ، وام كأحسن مـا تكون الأمهات ..

وأظهر فحص الأشعة وجود جسم غريب دقيق الحجم مستقراً فوق عصب البصر ..

فأطلع مايكل جويس مسز رايت على الصورة ، ثم بين لها ضرورة إجراء جراحة معينة بالمخ لرفع ذلك الجسم الغريب. وإزالة الضغط عن العصب حتى يمكن انقاذ بصر الفتاة ..

فوجمت قليلاً ..

ثم سألته :

– أهي شديدة الخطورة ، تلك الجراحة ؟

– هناك دائماً بعض الخطر في الجراحات الكبرى ..

– وما مدى هذا الخطر يا دكتور ؟

– إن نسبة الوفـــاة في مثل هذه الجراحة بالذات تبلغ واحد في المائة ..

فتلفتت حواليها في حيرة .. وبدا عليها الألم والأسى ..

وغمغمت :

– وإذا لم تجر لها هذه الجراحة ؟

وأدرك الطبيب أن الصراحة أولى وأجدى مع امرأة من هذا الطراز ، ليست في حاجة إلى العبارات التقليدية الجوفـاء التي تقال لبث الطمأنينة في النفوس ، فهي رابطة الجأش قوية الأعصاب ..

فأجاب في أسف :

– سوف تفقد البصر حتماً ..

فراحت تعصر يديها في أسى ، وما لبثت أن غمغمت في نبرات تبعث على الرثاء :

– رباه !. ليتني أعرف ماذا ينبغي عمله !. لو أن فيليب عاد من رحلته . لكان أقدر مني على تقرير ما يجب صنعه الآن ..

– إن كل أسبوع يمر يزيد الحالة سوءاً .

– أعلم ذلك ، ولا ريب أنك على حق .. ولكن هل تظن أنها ..

وتمهلت قليلاً كأنما لا تريد أن تشي كلماتها بالخوف الذي انتابها .. ثم أردفت :

– أعني أنها لن تكون ضمن الواحد في المائة !؟

فأراد أن ينفث فيها من ثقته بنفسه ..

وأجاب :

– إن الأمر لا يستحق التردد يا مسز رايت ، فستنجح العملية فتنجو ابنتك من خطرها .. ويمكنك أن تثقي بي ..

فتطلعت اليه بعينيها الصافيتين الزرقة ، تحاول أن تستشف من نظراته مدى قوته وقدرته .. وكأنما ارتاحت إلى النتيجة . فارتسمت على شفتيها ابتسامة شاحبة وقالت :

– حسناً .. سوف أفعل ما توصي به ..

وعندئذ قال في إيجاز :

– الأفضل إذن أن نترك آن في المستشفى حيث هي الآن ، في راحة كاملة ، وسوف أجري لها الجراحة عندما يحين الوقت الملائم ..

وفيما كان يفتح لها الباب مودعاً أمسك بيدها لحظة .. وهو يغمغم :

– لك أن تطمئني تماماً يا مسز رايت ..

فأجابت إيما :

– إنني مطمئنة ..

وكان بعد ذلك يرى آن في المستشفى كل يوم ، ويرى معها إيما رايت دوماً ..

وعلم أن زوجها من المشتغلين بعلم طبقات الأرض ، ويمارس عمله في

الخارج معظم الوقت ..

وكانت إيما خلال غيبته تركز عواطفها جميعاً في ابنتها الوحيدة التي تحبها إلى درجة العبادة .

وطالما رأى مايكل جويس في عينيها الصافيتين الطاهرتين ملائل ذلك الحب المتجرد من الأثرة الذي تضفيه على ابنتها الصغيرة .

ودنا اليوم المحدد لاجراء العملية الجراحية ..

فوقف مايكل جويس وإيما ينظران الى الجسم النحيل الراقد بين أغطية الفراش الناصعة البياض ..

وما لبث أن أخبر الفتاة في كثير من الرفق انهم سيضطرون الى قص شعرها الطويل ..

فهتفت في لوعة :

ــ آه !. أرجوك يا دكتور .. سوف يكون منظري بشعاً .

فقالت إيما مبتسمة لها :

ــ كلا يا آن .. سوف ينمو سريعاً فتتموج خصلاته ويزداد حسناً وجمالاً ..

وعلى الرغم من عزم الفتاة واصرارها على أن تبدو شجاعة غير هيابة ، فقد فر لونها ، فتبدت في محياها مسحة من التوجس والخوف .

فقال مايكل في دعة :

ــ ليس ثمة ما يدعو الى الخوف والرهبة يا آن ، فسوف نعطيك شيئاً لطيفاً يجعلك تستغرقين في نوم عميق ، حتى إذا ما استيقظت كان كل شيء قد انتهى .. بل انك لن تشعري حتى بصداع خفيف ، وبعد ذلك تستعيدين بصرك وترين كل شيء في وضوح ..

ثم تحول يلقي التعليمات الى الممرضة التي ترافقه ، وهو يهم بالخروج ، على حين ربتت ايما على يد طفلتها في حرارة ، وانثلت تتبعه ، ولكن

آن لتشبثت بيدها في ذعر طاغ ..

فراحت تهدىء روعها قائلة :

– سوف يعني بك مستر جويس عناية بالغة ..

الا أن الفتاة غمغمت في ضراعة مؤثرة .

– لا تتركيني يا أماه !

فاستدار مايكل نحوها قائلا :

– ما رأيك في أن تبقى والدتك معك حتى تستغرقي في النوم ؟

– وهل يمكنها أن تظل معي حتى أفيق ؟

– في وسعها أن تلبث معك طول الوقت اذا شاءت ..

فتهدج صوت الفتاة جذلا اذ قالت :

– نعم يا أماه .. أرجوك !

بيد أن ايفا ترددت قليلا ، وقد لاحت لعينيها فجأة صورة مروعة لابنتها فوق منضدة العمليات ..

ثم غمغمت :

– سوف أنتظر في البهو يا عزيزتي ..

– كلا .. كلا .. بل ستبقين معي .. فقد قال مستر جويس ان ذلك في استطاعتك !

– حسنا يا عزيزتي .. سأظل معك كما تشائين ..

فخرج مايكل وتركهما وحدهما بعد ان قال :

– سوف اراك بعد قليل يا آن ..

ولحقت به ايفا في الردهة لتسأله ان كان وجودها في حجرة العمليات سيضايقه ..

فخالجه شعور بالشفقة حيالها ، اذ رأى امتقاع وجهها ، ودلائل الذعر والقلق المرتسمة عليه ..

ولكنه قال في اقتضاب :

ـ انك لن تأتي الى حجرة العمليات ، فقد قلت ذلك لأبعث السرور والقوة في نفسها فقط ..

فتطلعت اليه ايا في دهشة ونفور ، وقالت :

ـ هل تعني انني لا استطيع الدخول :

ـ كلا البتة .. فهذا محال !

ـ ولكنني وعدتها !

ـ انها لن تعلم شيئاً عن هذا متى غابت عن الصواب بتأثير المخدر .

ـ ليس هذا هو المهم ، انما المهم انني وعدتها بملازمتها ، واذا تبينت فيما بعد انني لم اعدها بذلك الا على سبيل التشجيع واني كنت اخادعها ، فلن تصدقني بعد ذلك في شيء ..

ـ الا انها لن تتبين ذلك البتة ، فلماذا ترعجين نفسك بهذه الخواطر ؟

ثم قادها الى قاعة الانتظار ، حيث اجلسها في مقعد وثير .. ومضى لشأنه ..

وفي الضوء الباهر والحرارة القاسية ، كانت آن ترقد امامه على منضدة العمليات ، لا تلك الطفلة القلقة المتوجسة ، وانما جسم صغير ساج لا يبدو من الأغطية البيضاء التي تحيط به سوى أعلا الجبهة ..

وكان يقف حوله مساعده وطبيب التخدير والممرضات على استعداد لاطاعة أقل حركة تبدر منه ، وقد ارتدوا جميعاً ثياباً من اعلا الرأس الى أخمص القدم .. ووضعوا فوق وجوههم قناعات كثيفة لا تبدو منها سوى عيونهم وهي تتبع يدي الجراح في اهتمام بالغ ..

ولم يكن يسمع في الحجرة غير أنفاس الفتاة المترددة في انتظام ، وغير حفيف ثياب الممرضة وهي تناول الطبيب أداة بعد أخرى ، فيديرها بين أنامله في حركات ثابتة ، يقودها العلم والمقدرة من وراء عينيه الحادتين المركزتين

فيما أمامه .

فلما ثبتت الضمادات الأخيرة حول الرأس بمشابك خـــاصة ، ورفعت الأغطية عن وجه الفتاة ، فبدا خلواً من قناع التخدير ، خطـــا الطبيب خطوة إلى الوراء إيذاناً بانتهاء الجراحة ، وقد شعر فجأة بالتعب يثقـل كتفيه ..

ولكنه كان يعلم أنه قد نجح ، وأنه قـــام بجراحة بارعة فذة ، لا مضاعفات أو تعقيدات فيها ..

فقد بذل غاية جهده ، وكلل عمله بالنجاح ، ونجت آن من الخطر .

الفصل الثالث

ما أن خلع مايكل جويس أزار الجراح وقلنسوته وقنـــاعه ولبس ثوبه العادي ، حتى أسرع إلى الحجرة التي كانت إيـــا رايت تنتظره فيهـــا .. فلم ينتبه عند دخوله إلى وجود سيدة أخرى مضطجعة في مقعد كبير بجوار المدفأة ، إذ اتجهت أنظاره مباشرة إلى إيا وهي تجلس على حافة المقعد في تحفز ولهفة ..

فما كادت تراه حتى وثبت على قدميهـــا في عصبية شديدة ، ووقفت أمامه جامدة شاحبة الوجه كالأموات ..

فغمغم :

ـ حسناً .. لقد انتهى كل شيء يا مسز رايت !

فهتفت في صوت حاد متهدج :

ـ انتهى كل شيء ؟ ماذا تعني بالله ؟

ـ لقد تمت العملية على خير وجه ..

فظلت تحدق النظر في وجهه كأنما لا تفهم ما يقوله !

ولكنها ما أن استوعبت كلامه حتى انتابتها رعدة شديدة وارتجفت شفتاها ..

ثم انهمرت دموعها !

فتقدم مايكل نحوها ، وراح يربت على كتفهـــا مهدئاً وهو يغمغم في رقة :

– إن كل شيء على ما يرام الآن !

فأخذت تجاهد في سبيل استعادة هدوئها ..

وما لبثت أن قالت :

– آه ! إني آسفة ، ولكنهـــا دموع الفرح .. فقد غبت مدة طويلة ، وظننت .. ظننت !

واحتبس صوتها ثانية ، ولكنها سرعان ما كفكفت دموعها وابتسمت وهي تردف ..

كأنما تعتذر عن مسلكها :

– ما أشقى المرء إذا كان شديد الكلف بشخص ما ؟

وعندئذ انبعثت المرأة الجالسة بجوار المدفـأة تقول فجأة في صوت حـــاد :

– يجب أن تتجلدي يا عزيزتي .. فقد قـــال الدكتور انهـا على ما يرام !

– نعم .. أعرف ذلك !

ثم تحولت اليه لتسأله في لهفة :

– هل أستطيع أن أراها الآن ؟

– سوف تفيق من أثر المخدر بعد قليل ، إلا اني أود أن ندعها في راحة تامـة !

– إنني لن أزعجها يا دكتور .. ولكني سوف أكون أحسن حـالاً إذا رأيتها !

وعندئذ وقفت المرأة الأخرى قائلة في صبر نافد :

– لا تكوني حمقاء يا إيما .. هيا بنا ، فما ينبغي أن نبقى طويلاً بعد أن

علمنا أنها بخير !

فنظرت اليها إيما .. في عجب !

ثم ابتسمت وقالت معتذرة :

– آه ! هذه أخت زوجي ، مسز هوارد .. وهذا دكتور جويس !

فتبادلا تحية التعارف في غير اكتراث وبلهجة فاترة شبه رسمية ، ومايكل جويس لا يعيرها اهتماماً حتى لكأنه لا يحس وجودها ..

كان سعيداً اذ استطاع أن يهب إيما رايت الطمأنينة والسعادة ، وكان شعوره هذا منبعثاً من أعماق القلب ، كشعور صاحب المهنـــة إذا صادف نجاحاً وتوفيقاً في عمله ..

ولكنه لم يحلله وقتئذ أو يعرف كنهه !

وأجريت في الأيام التالية اختبارات عديدة على الطفلة وهي راقدة في فراشها ، ووجهها أبيض ناصع كالضمادات التي تحيط برأسها !

وفي تلك الأيام كان اليأس يعاود إيما وهي ترى ابنتها فيما يشبه الذهول عما حولها ..

ولكن مايكل كان لا يفتأ يطمئنها ويقنعها بأن الفتاة تتقدم نحو الشفاء !

فتلت ذلك فترة من الانتظار الطويل واللهفة الجارفة ، كانا ينتظران حتى يتبينا أثر الجراحة على بصر الطفلة ..

وقد أتت لحظات تناوبها وفيها الخوف والجزع خشية أن تكون آن قد فقدت البصر تماماً ..

لحظات كان فيهـــا مايكل جويس نفسه يكاد يشك في مقدرته وثقته بنتيجة عمله !

ولكن نظرها بدأ يقوى تدريجياً ، وبدأت تميز الأشياء التي حولهـا ، كما عاودتها ضحكاتها المرحة الرنانة ..

وكانت تجلس ذات مساء في فراشها ، ووالدتها بجانبها ، عندما راحت تقرأ له في كتاب القصص بصوت عال ..

ثم رفعت عينيهـــا عن الكتاب ، في انتصار وسرور ، وطلبت اليه ان يمسك به بعيداً عنها ، عند الطرف الآخر من الفراش ، وما لبثت أن قالت ضاحكة :

– أرأيت ؟ انني أستطيع القراءة حتى وهو في هذا الوضع .

فبادلهـــا الضحك في مرح وزهو ، وألقى بالكتاب على الفراش وهو يقول :

– أرأيت ؟ ألم أقل لك ذلك ؟

ولقد ظل مايكل جويس وإيما رايت يلتقيان كل يوم مدة طويلة ، ويتقاسمان الأمل واليأس ، والقلق واللهفة نحو سلامة آن وعودة بصرها ، كان يجمعهما شعور واحد ، وتراودهما خواطر واحدة ، ويخفق قلباهمـــا بوجيب مماثل .

وهـــا هما الآن يتقاسمان نشوة النجاح وتسري في عروقهما هزة الفرح والهناء ..

وكانت إيما جد شاكرة له إذ رد إلى ابنتها بصرها ، على حين وجد مايكل نفسه يزداد اهتماماً بها يوماً بعد يوم ، خصوصاً عندما أخذت آن تدرج نحو الشفاء ، إذ فارق إيما جمودهـــا وتحفظها . وبدأت تظهر على طبيعتها المرحة معه ، فيتبين سحرها الهادىء وفتنتها التي لا يشوبهـــا التكلف ، أو تثيرها رغبة الاغراء ..

وحل أخيراً ذلك اليوم الذي كان مايكل يتوقعه ويخشاه ..

يوم زيارتها الأخيرة له ، قبل أن تعود إيمـــا بابنتها إلى منزلها بالريف ..

وكانت آن واقفة بجانبها في الردهة ، ورأسها يداني كتف أمهـــا ،

عندما قالت إيما :

ـ لقد ذهبت وآن إلى السينما في الليلة الماضية .. فكانت أول مرة منذ عام !

وأردفت الفتاة في جذل :

ـ لقد كانت بالألوان الطبيعية ..

فتلت ذلك فترة من الصمت ..

كأنما لا يجد أحد منهم ما يقوله ، حتى واجهته إيما أخيراً مبتسمة ابتسامة مغتصبة قائلة :

ـ حسناً .. لست أحسب اننا سنراك بعد ذلك يا دكتور ..

فقال في حرارة :

ـ بل أرجو أن تفعلي !

وما كاد يقولها حتى أحس بما في هذا الرجاء من حقيقة ، فقد كانت أمنية منبعثة من أعماق قلبه !

فأجابته إيما في صدق واخلاص :

-- واني لأرجو ذلك بالمثل ..

ثم فتح الباب الخارجي في بطء ، فتنحى عنه حتى خرجتا ، وهو يشعر انه يفقد شيئاً ما ..

شيئاً ثميناً لا يدرك كنهه تماماً !

ونظرت آن إلى الطريق ..

ثم هتفت :

ـ أنظري يا أماه ! لقد طلعت الشمس من جديد !

ـ سوف نذهب إلى المتنزه إذاً . أيروق لك ذلك ؟

ولكن آن كانت قد خرجت ومضت تتراقص فوق الدرج ..

فتحولت إيما نحوه ومدت اليه يدها ، وهي تشعر بشيء من الحزن

لفراق هذا الرجل الذي جلب لها كل هذه السعادة ، والذي كان جزءاً من حياتها طوال الشهور الماضية .

وغمغمت :

– وداعاً يا دكتور !

فأمسك بيدها ، ومضى يتأمل ذلك الوجه الرقيق الطاهر لحظة ..

ثم قال :

– أنت ذاهبة الى الحديقة حقا ؟

فسألته في دهشة :

– نعم .. لماذا ؟

– هل لي أن أرافقكما ؟

– طبعاً .. بلا ريب !

فخيل اليه أن نبراتها تشف عن الابتهاج والسرور . فتناول معطفه من المشجب بجوار الباب .

فراحت تعاونه في ارتدائه وهي تقول :

– ألا تخبر أحداً بخروجك ؟

– سوف أخبرهم عند عودتي !

وكان يشعر شعور الغلام الذي يفر من مدرسته ، فلم يفعل قط من قبل شيئاً كهذا ، لا يمت بصلة الى مهنته !

فترك عمله بعد الظهر لا لشيء سوى النزهة في حديقة عـامة مع بنت صغيرة .

وكان يوماً صافياً من ايام الشتاء الأخيرة ، وقد أشرب الجو بدفء يسير ، وسرت في النسيم روحة من روحات الربيع ..

وكأنما راقت الفكرة ذاتها سائر الناس ، فامتلأت بهم ممرات (هـايد بارك) .. انها وايم الحق فكرة سديدة ، فيما يرى مايكل ..

وكانت آن تمدو فوق العشب ، وتدور حول القوارب التي تملأ البحيرة ، على حين كان مايكل يسير مع امها ، يتحدث ويضحك كأنما ليس في العـالم سواه وسواها ..

وكانت تتحدث عن عملـه ، وعن نفسها ، في مرح طبيعي ، وفي غـير تكلف او تحفظ .

ومع ذلك ، فلم يكن في نبراتها ، اي اثر للخلاعة او الاغراء ..

وكان مايكل يتأملها وهي تخطر في خفة ، بمعطفهـا الأسود البسيط ، وشعرها الكستنائي الهفاف الذي يعبث به النسيم ، وبشرتهـا المتوردة الوضاءة ، وفمها الجميل الذي يكاد يتجرد من الطـلاء وقد راح يبتسم له ، وللآن ..

وللدنيا بأسرها ..

وكان في تلك المرأة شيء أثر في مايكل جويس كل التـأثير ، وسحره اروع السحر !

صفة قلما صادفها من قبل ، وكانت اليوم في ذروة جلالها ، فقد علمت للتو أن زوجها سيعود من الخـارج ، ولم تكن تراه في الآونة الأخيرة سوى شهرين من كل عام .. أما الآن ، فقد تخلى عن عمله في الخـارج ليبقى معهـا دوماً .. وكان ذلك ما اثار سرورها واشاع المرح والنشوة في اعطافها ..

وكان ينبغي ان يودع احدهما الآخر عندئذ ، ويفترقا الى غير لقاء ، بعد ان بلغت صلتهما نهايتها الطبيعية ..

صلة الطبيب بأهل المريض الذي تم شفاؤه !

ولكنهما لم يفعلا ..

فعندما قدمت الى لندن ثانية ، التقيا مرة اخرى ، فتعدد لقـاؤهما ، وتقاربت فتراته ، واستطالت جلساته ، وتبينا ان لهما ميولاً واحدة ، اذ

كانت تشاطره شغفه بالموسيقى والفنون ..
ودعاها مرة الى الذهاب الى قاعة الموسيقى في صحبته .
فاستجابت لدعوته ..

وكان يحس بها بجانبه ، وقد استحوذت الموسيقى على لبها !
وظل يرقب تلك الظاهرة الغريبة التي تلازمها ، اذ يتحول لون عينيها من زرقة صافية الى زرقة قاتمة ، كلما تأثرت او أثيرت ..
وعندما اخذا يتناول العشاء ، ظل يستمع في غبطة وجذل الى آرائها الناضجة ، سواء اكان الحديث عن الكتب ، ام المسرح ، ام الموسيقى ..
ورأى حساسيتها السريعة ، وحبها الغريزي ، واستجابتها لكل ما هو جميل رقيق !
وكان يعلم انها « سيدة » بكل ما في هذه الكلمة التقليدية من معان ، رقيقة حانية ، لا تعرف الخوف او الرهبة ، تجردت نفسها مما يشين ، وعندئذ بدأ مايكل جويس يدرك مبلغ ما فاته وخسره في اعوام العزوبة والعمل المضني الماضية .

فلما انتهت الحفلة صحبها في سيارته الى منزلها بالريف ، وهو يبعد عن المدينة زهاء ثلاثين ميلاً او اربعين ، وكان الطريق المقفر يمتد وسط حجب من الظلمة الحالكة ..
فقالت معتذرة :
- انني احس بذنبي اذ كبدتك كل هذه المشقة وتركتك تمضي بي هذه المرحلة الكبيرة ، وكان يجدر بي ان امضي الليلة في المدينة لولا انني اكره ان اترك آن وحدها .

- ينبغي ان نقضي امسية اخرى معاً !
فأجابت في بساطة وطهارة :
- كم يسرني ذلك ..

فتفرس فيما حوله برهة ..

ثم قال :

ـ لا ريب اننا على مقربة من المنزل ، فهلا ارشدتني ؟

فانحنت فوق النافذة لتتأمل ما حولها ، وكان القمر مقنعـــا بخمار من السحب ، والظلام من الكثافة بحيث تكاد تلمسه بيدها ..

واخيراً قالت :

ـ احسبني اعرف اين نحن الان .. انتظر لحظـــة ، حتى اري ذلك السياج ..

فأبطأ من سرعة السيارة ، على حين ظلت إيمـــا تتفرس في الظلام حتى قالت :

ـ آه .. نعم .. هذا هو المعبد ..

ـ أي معبد ؟

ـ إنني أراه دائماً من نافذة مخدعي ..

ثم تضاحكة وأردفت :

ـ وكم من منازعات عائلية ثارت بسببه ..

ـ ولماذا ؟.

ـ أمض بالسيارة قليلاً حتى أريك اياه .. فلن يستغرق ذلك منـا زمناً طويلاً !

وأوقف السيارة على مائة ياردة ، حيث ترجلا .

فإذا على جانب الطريق إلى الداخل معبـد صغير من الحجر ، ينهض وحده بين الحقول ، وضوء القمر يضفي بياضاً ساطعـــا على جدرانه القاتمـة ..

فظلا ينظران إلى داخله برهة خلال نافذة ضيقة من الزجاج المعتم .. وأخيراً استدارت إيما ووقفت مستندة بظهرها إلى الباب الثقيـل

المصنوع من خشب البلوط والذي تعلوه قبوة مدببة على الطراز القوطي ، على حين راحت تلمس أحجاره بيديها فيما يشبه الحنان .

وهي تقول :

- عندما تهب الرياح الى ناحيتنا ، فإننا نسمعها كأنها تغني .. وكم أحب ذلك . فإن الصوت يتخلل المعبد ويخرج من الناحية الأخرى كأنغام الأرغن !

وارتعدت قليلاً ..

ثم تابعت القول :

- انني لا أعلم الحقيقة ، ولكن هذه الأصوات لتشيع في النفس شعوراً بالروعة والراحة .. غير أن بعض الناس يمقتونها .. وكانت كات قبل أن تتزوج لا تفتأ تحاول دائماً أن تقنع فيليب - زوجي - ببيع المنزل .. فلما قتل زوجها ، وعادت للاقامة هنا ثانية بدأت تعاود الكرة وتثير المنازعات من جديد ، وهي تقول دائماً أن (كلاي) يعزف على الأرغن في أنغام كأنين الأبالسة !

وكان وهو يرقبها في ثوبها الطويل المحتشم ، ويرقب حركات يديها الرقيقتين البيضاوين ، لا يكاد يفقه شيئاً مما تقوله ..

كأنه لا يشعر بشيء سوى السعادة التي تغمره في نظراتها ، وفي رنين صوتها ..

ولكنه قال :

- من هو كلاي ؟

فأجابت ايما :

- انه البستاني فهو يعزف على الأرغن ، وتود كات أن نطرده لهذا السبب !

فسألها مايكل :

– لماذا ؟ هل يؤثر عزفه على عمله في الحديقة ؟

وضحكا معاً ، وهي تجيب :

– كلا .. ولكن كات تعتقد أنه اذا ترك العمل اضطر الى الرحيل الى جهة أخرى وبذلك لا يكون هناك من يعزف على الأرغن ، وبذلك تكف الأصوات الرهيبة التي تنبعث من المعبد .

فقال الطبيب :

– ومن هي كات ..

فقالت ايما :

– انها شقيقة زوجي ، وقد قابلتها في المستشفى ذات يوم ..

– حقاً ؟

وذكر في غموض تلك المرأة التي كانت مع ايما في قاعة الانتظار عندما أقبل ليخبرها بنجاح العملية ..

على حين استقرت عيناها في التفكير ..

ثم قالت في بطء :

– انك لا تذكر حتى الناس الذين تقابلهم ، اليس ذلك مما يدعو الى التفكير ؟

فصمد لنظراتها الصارمة ، وقال :

– اني أذكر من كانت لهم اهمية خاصة .. أولئك الذين أحب أن أذكرهم ..

وراحت تبتعد عن المعبد ، وتهبط الدرج ، ثم تسير نحو الطريق ، وهو يتبعها ..

فلما وقفا بجوار السيارة ، أشارت الى بقعة قاتمة على بعد يسير منهما وقالت في غير اكتراث :

– هذا هو منزلنا ..

– أهو حقاً ؟
وظلت صامتة ، دون ان يهم أحدهما بدخول السيارة ، وبغتة تنفست في صوت مسموع !
ثم قالت في حياء :
– هناك شيء اردت ان أسألك عنه طول المساء ..
– وما هو ؟
فترددت قليلاً قبل ان تجيب :
– انه .. حسناً .. هل أنت مطلق ؟
فرد مايكل :
– كلا .. فإن هيانا لا تريد الطلاق ، لماذا تسألين هذا السؤال ؟
فأجابت ايما :
– لقد كنت أتساءل عن حقيقة موقفك ، وهذا كل ما في الأمر !
وكأنما خانها صوتها فكفت عن متابعة الحديث ، وما لبثت ان ابعدت الموضوع في ابتسامة سريعة ، قائلة :
– لا ريب أن الوقت متأخر تماماً ، وينبغي ان نعود ادراجنا !
وودعها مايكل جويس عند الممر المؤدي الى المنزل ، دون ان يفكر في مرافقتها الى الباب ..
وقد افترقا في غير احتفاء ، فراقاً جامداً فاتراً ، بعد ان أزجت اليه ايما الشكر على الأمسية التي قضتها معه ..

* * *

واتصل بها في اليوم التالي ليسألها ان كان يستطيع لقاءها قريباً ..

وذكر لها ان في وسعه تنظيم مواعيده حتى تلائمها ، فليس عليها الا ان تخبره بالموعد الذي ستكون فيه في المدينة فيدبر الأمر بحيث يكون خلواً من العمل ..

واحتجت ايما بان ذلك قد يتعارض مع عمله ومصالحه ، ولكن مايكل جوبس كان يحس بان العمل لم يعد له المقـــام الأول في نفسه كما كان من قبل ، وانما لا يهمه الآن ولا يشغل عليه خاطره الا ان يستطيع لقاء ايمـا باستمرار .

والفتى نفسه يفكر فيها كل ساعة وكل لحظة من اليوم ..

فهو يصور لنفسه ضحكتها المرحة السريعة ، عندما يقص عليها حادثاً طريفاً صادفه في عمله بالمستشفى !

وكان إذا أقلقه أمر أحد مرضاه ، راح يبثها قلقه .. كان يطلعهـا على مطامحه ، وآماله ، ولا يكتم عنها هواجسه ومتاعبه !

كان عهده دائماً متحفظاً ، منطوياً على نفسه ، لم يخرجـه عن طبيعته هذه انسان آخر قط من قبل ..

لكنه انقلب معها ثرثاراً لا يكتم سراً ..

وكان كلما أضناه قضاء ساعات يومها مع مريضاته الحمقـاوات ، ولى وجهه شطرها فوجد الراحة معها ، كأنما يستمد القوة من حيويتها ، كان كل يوم يمر بهما يزيد رابطتهما توثقاً .

وكانت كل خلة يكتشفها فيها تضفي قوة على التفاهم والانسجـــام المتبادلين بينهما .

وكانت إيما ، مع غياب زوجها أكبر جزء من العام ، تكاد تعيش في عزلة بمنزلها الريفي مع آن ..

فكان من الطبيعي أن تسر لصحبة هذا الرجل الذكي المثقف ، الذي تشاطره الميول والنوازع ..

ولقد اعترفت في قرارة نفسها أن من بواعث الغبطة أن تذهب في رفقة رجل مثله إلى المسارح والمراقص !

وكانت تجد البهجة في حديثه البارع ، وسعة اطلاعه ولباقته ..
كانت تعرف ذلك كله ..
وتعترف به !.

ولكن الذي لم تتبينه في بادىء الأمر ، هو إن انعطاف قلبها نحوه إنما يرجع إلى جاذبيته الشخصية ، تلك الجاذبية التي لا علاقة لها بثقافته وسعة إطلاعه ..

وكان كلاهما يدرك في أعماق نفسه حقيقة ما يحدث لهما .
كان كلاهما متزوجاً ..
وكان كلاهما يعلم حق العلم ما ستؤدي اليه صداقتهما الوثيقة البريئة حتماً ، ومع ذلك فقد تركا الأمور تجري في مجراها ..
ومع مرور الزمن اتخذت إيما عادة الحضور إلى منزلهكلما اقبلت إلى المدينة لتتبضع ..
وكانا يلتقيان لقاء عادياً ..
ولكن كلا منهما كان يشعر شعوراً قوياً بمكانة الآخر في نفسه ، كانا سعيدين كل السعادة كلما اجتمعا كرفيقين مخلصين ، وكانا يحاولان اقناع نفسيهما بأن ذلك كل شيء !

* * *

وعندئذ حان ذلك اليوم الذي لم يعد في وسعهما التصنع والكتمان طويلا ..
فقد ترك مايكل جويس حجرة الاستشارة منهوك القوى ، ومضى إلى

حجرة الاستقبال ..

فما كاد يبلغ بابها حتى وقف مكانه ، إذ كانت إيما هناك ، جالسة بجوار الحاكي .

كانت عارية الرأس بلا قبعة ، ترتدي ثوباً بسيطاً أزرق اللون ، وهي تصغي في غبطة إلى الأنغام المنبعثة من الحاكي ..

فظل برهة يرقبها ، ويصغي بدوره ..

لم تكن موسيقى « باخ » التي يحبانها أكثر من غيرها ، وإنما كانت أنغاماً رقيقة تشف نبراتها عن طفولة ، فتردد قليلاً وهو في عجب من أمر هذه الاسطوانة ، عندما سمع الأنغام يخفت فجأة ، ثم صوت آن ينبعث منها واضحاً بهذه العبارة :

« يا للعنة سوف أبدأ من جديد » ..

فولج الحجرة وهو يقول :

– شد ما يؤسفني ان تركتك تنتظرين ، فقد كنت مثقلاً بالمواعيد .

فأسرعت توقف الحاكي ، وقد تألقت عيناها بالسرور للقياه ، وهي تقول :

– لا شيء في ذلك البتة ، فقد أعددت لك مفاجأة ظريفة ..

فقال مايكل :

– وما هي ؟

وكانت منهمكة في استبدال الابرة ، وهي تجيب :

– إنها اسطوانة من غناء آن .. وهي من الاتقان بحيث تحسبها من عازف محترف .. وقد ملأتها بأغنية : سيدتي هل لك أن تسيري ؟

أصغى إلى موسيقى الافتتاح ..

ثم قال في اعجاب :

– حسن جداً ، هل هي آن حقيقة ؟
فأجابت إيما :
– طبعاً هي !
– إنه عمل المحترفين ..
فأشارت اليه ليصمت قائلة :
– صه .. ينبغي أن تصغي !
وكانت تختال زهواً ، وعيناها تلمعان في غبطة ، وقد ركز انتباههـا في الأغنية ..
وتلت ذلك فترة صمت الموسيقى ..
ثم صوت آن في خفوت :
– يا للمنة ! سوف أبدأ من جديد ..
وبدأت الموسيقى مرة أخرى ، بينما كان مايكل يقهقه بصوت عال ، وإيما تنظر حواليها في قلق وخزى ..
ثم قالت كأنما تعتذر عن طفلتها :
– هذا هو الخطأ ، فقد كان ينبغي أن تستمر ، ولكننا سنملأ اسطوانة أخرى بالأغنية كلها ..
وفي تلك اللحظة انتهت الموسيقى في أنغام بطيئة متعثرة ، اعقبها صوت آن وهي تقول :
– انني شديدة الأسف ..
وتجاهلت إيما ضحكات مايكل ..
ثم مضت إلى المعزف وهي تردف :
– إنها تجيد عزفها حقاً ، ولكن الخطأ حدث هنا !
وراحت تجري أصابعها على المعزف في مهارة رائعة ..
فتناول الاسطوانة ، ووقف يرمقها من بعد .. وكان يعرف الأغنيـة

بلا شك ..

« سيدتي ، هل لك أن تسيري ؟

« سيدتي هل لك أن تتحدثي ؟

« سيدتي هل لك أن تسيري معي وتتحدثي الي ؟

« سوف أهبك مفاتيح قلبي . حتى لا نفارق نحن الاثنان قط ..

« سيدتي ، هل لك .. »

وكانت ماضية في العزف في مرح وبراعة ، وهي تتحدث عن آن :

— إنهـــا تحفظ بالسماع .. فبعد الحادث الذي أصابها جعلتها تمضي في درسهـا ، حتى لا تنسى الموسيقى أيضاً .. فـلا ريب انك تعلم كم يسر المرء عندما ..

وعندئذ أتاها صوته ، يجلجل بين أنغام الموسيقى :

— إيما .. هل تحبين زوجك ؟

فكفت عن العزف دفعة واحدة ، واخذت تتطلع اليه خلال الحجرة وقد شحب وجهها وغدت كشبح من الأشباح ..

فأعاد سؤاله في نبرات آمرة خشنة :

— حسناً ، هل تحبينه ؟

فمرت بأناملها على مفاتيح المعزف دون وعي ، وما لبثت بعد برهة أن قالت في جفاء :

— لست أدري كيف أجيب على هذا السؤال .

— هل تعلمين لماذا سألتك إياه ؟

فأحنت رأسها في تمهل وقالت :

— نعم ..

ثم نهضت فسارت إلى النافذة حيث وقف بجوارها ، وهي توليه ظهرها ، وأنظارها تسرح في فضاء الطريق .. وأخيراً تحولت ، وقد بدت في أساريرها

أبلغ دلائل الألم ، قائلة :

ـ أواه يا مايكل ! ما أفظع ذلك ! انني لا أدري ماذا يمكن أن أقـول ..

وكانت تتكلم دون تلعثم ، ولكنه أدرك مبلغ الذي تتكبده إرادتهـا القوية حين استطردت :

ـ لقد قضيت وفيليب حقبة طويلة من الزمن ، كان خلالها رفيقاً بي غاية الرفق ، وما حسبت قط أن سيقع لي شيء من ذلك ..

قالت ذلك كأنما لا حيلة لها في الأمر ، فملأته نشوة الانتصار والفوز إذ لمس في كلماته الرضوح للأمر الواقع .

فهتف بها من أعماق قلبه :

ـ إيما .. شد ما أحبك !

وخبا بريق الفرح الذي تألق في عينيها لحظة خاطفة ، فتقلصت شفتاها وهي تصيح :

ـ ما كان ينبغي أن تقول لي ذلك ، فلو ظللنا نكتم مشاعرنا لكان في الوسع أن نمضي في رؤية أحدنا الآخر ..

فقال في صوت أجوف جامد النبرات :

ـ ما كان الأمر ليستمر على هذا النحو ..

فأدركت أنه يقول الصدق ويقرر الحقيقة المجردة ..

وأجابته :

ـ كلا .. انه ما كان ليمضي كذلك حقاً ..

ـ لقد اردت أن تعرفي يا إيما ..

فابتسمت ابتسامة رقيقة ..

وكانت لهجتها تنم عن الفهم عندما قالت :

ـ لقد كنت أعرف يا مايكل ..

وأراد أن يحاول تبرير تصرفه فقال :
– لقد حاولت أن أتجاهل الأمر ، وأن أقنع نفسي بعبث ما أطمح اليه .. ولكن هيهات ! فكنت أقول لنفسي أن شيئـــاً سوف يحدث فلتستقيم بعده الأمور .

وكان صوته يخفت رويداً رويداً حتى غدا أقرب إلى الهمس ، عندمـــا أردف في يأس :
– ومع ذلك كنت اعلم ان ذلك الشيء لا يمكن أن يحدث ..
فوافقته في أسى :

– لن تستقيم الأمور قط .. فكلانا ليس حراً ، وكلانا لن يكون حراً البتة ، وليس في وسعنا أن نفعل شيئاً ، إذ لا حيلة لنا في شيء ..
وكان في وضوح هذا الكلام وصراحته القاسية ما جعل الرعدة الباردة تسري في جسده ..
حتى كان ينزع الألفاظ انتزاعاً إذ قال :
– أحقاً إننا لن نلتقي بعد اليوم ؟

فأجابت إيما :
– كلا !.
– والتفت حواليها نظرة سريعة ..
وما لبثت أن سارت نحو الباب في تثاقل ، وقد خلت خطاها من ذلك النشاط والخفة اللذين كانا يلازمانها دوماً ..
وعندئذ قال قانطاً :
– سوف أشعر بوحشة عظيمة لفراقك ..

فنظرت نحوه وغمغمت :
– أواه يا مايكل .. وكذلك أنا ..
وخنقتها العبارات ، فأشاحت بوجهها حتى لا يرى الدموع التي مـــلأت

عينيها ، عندما أردفت :

- وسوف يكون فراقنا قاسياً !

وعندئذ أحاطها بذراعه وجذبها نحوه حتى تلامس وجهاهـا ، ثم التقى فقبل فاها ، المرة الأولى ..

وكأنما كانا يتهيبان الموقف ، ويستكثران هـذه القبلة ، وأعـاد الكرة من جديد ..

وفي هذه المرة أحاطت إيما عنقه بذراعيهـا ، فتململت به في حرارة وشوق ..

الفصل الرابع

كان من العسير عليهما أن ينهيا هذه الصلة بعد ذلك ، رغم أن أحداً منهما لم يكن سعيداً بها ..

واستمرا يلتقيان كثيراً ..

وكانت السعادة تفيض عليهما في بعض الأحيان ، ولكن الحقائق الأليمة ظلت ماثلة أمامهما تواجههما كالأشباح الرهيبة ، فلا يستطيعان منها فكاكاً ..

ولم يكن أحدهما من ذلك الطراز الذي يسمح بتطور الصلة بينهما إلى علاقة آثمة ..

وكانت إيما تعرف كثيراً من النساء اللواتي اتخذن لهن عشاقاً في غفلة من أزواجهن ..

ولكن غريزتها الطاهرة كانت تنفر من ذلك كل النفور ، بل لم يخطر ببالها قط أن من المحتمل أن تحذو حذوهن .

فقد كان هذا التبذل مما يدق على فهمها فلا تعلم كيف يمكن أن يحدث .

ولذلك كانت مشاعرها النبيلة تجعلها تواجه المشكلة ، فتدرك دقتها وصعوبتها ..

وما كانت حانقة من زوجها او حاقدة عليه ، فقد كان على وشك

التخلي عن عمله المحبب كي يعود إلى بلده فيبقى معها ومع طفلتهما ، وبذلك كانت نهباً بين عاطفتين كلتاهما أشد طغياناً من الأخرى ، وفاؤها لزوجها ، وحبها الذي لا يقاوم نحو مايكل ..

أما مايكل فقد كان الأمر معه نوعاً من الكبرياء .

كان يحبها ، وكان يريد ان تكون إلى جانبه دوماً ، مهما كلفه ذلك من ثمن ..

ولكن الصفات والميزات التي يحبها فيها هي التي تعمل ضده الآن ، فتناهضه ..

اباؤها ان تساير الحياة ، وعجزها المطلق عن إيذاء أي شخص ، وعلى الأخص ذلك الزوج الذي كان « رفيقاً بها غاية الرفق » .. وما كان في وسع مايكل أن يناقشها في هذه المثل العليا ..

فهكذا كانت إيما ، إيما التي يحبها !

وهكذا كانت نفسيتها واخلاقها ، كما يبدو بارزة واضحة مثلها مثل عينيها الطاهرتين الصافيتين ، وشعرها اللامع المفاف ، وأناملها الرقيقة الموسيقية .

ولم يتحدثا في الأمر ، او بحثا مشكلتهما بعد ذلك قط ، وكانا يتحاشيان في حرص بالغ الاشارة إلى ذلك الموقف الذي كان يزداد دقة وحرجاً لكليهما يوماً بعد يوم .. وبدأت مظاهر الأسى تبدو جلية في أسارير إيما . وكانت الخطوط الزرقاء الباهظة التي تحيط باجفانها تدله على الليالي المسهدة التي تمضيها في صراع مع نفسها .

ومن ثم كان فؤاده ينفطر أسى ولوعة نحوها ، ويزداد حنقاً على نفسه لعدم استطاعته معاونتها .

وانتهت إيما إلى قرار معين ذات يوم ، فستكتب إلى زوجها وتوضح له ما حدث ، فتسأله ان يطلق سراحها ..

وقد استغرق منها انشاء هذا الكتاب ساعات برمتها من العذاب والألم ، فلما أتمته أحضرته إلى مايكل .

وراحت ترقبه وهو يطالع الكتاب ..

وأخيراً أعادة اليها دون تعليق ، فتحاشت نظراته وهي تتناوله منه ! وأدركت انه يفكر فيما كانت تفكر فيه تماماً .. فقد كانت تلك الخيانة من النذالة والقسوة إلى حد بعيد ، حيال ذلك الزوج الذي يحبها من كل قلبه ويثق فيها ثقة لا حد لها .

وأخيراً قالت :

– إنني لا أستطيع ارساله ..

فتفرس فيها بعينيه السوداوين العميقتين كأنما ينفذ بنظراته إلى صميم قلبها ، وإلى حجب المستقبل معاً ، فقد أحبها في تلك اللحظة بمثل ما لم لم يحبها قط من قبل ..

ثم قال :

– أعرف ذلك ..

فهمست تقول في صوت متهدج :

– شد ما وددت لو أستطيع ارساله ، ولكنه يبدو أمراً غير لائق نحوه ونحو آن .

– أعلم ذلك ..

كان يعلم حقاً أن إيما لا يمكن أن تكون خائنة ، ولو أرادت ، بل أن حبهما نفسه قائماً على احترام متبادل ، لا شك في أنه سيضيع إذا ما خضعا لهذا الحب .

ومن ثم كانت المشكلة ليست بذات حل ..

وعادت تقول كأنما تحاول أن تجد مبرراً لما تعلم انه واقع لا محالة :

– كما انه أمر غير لائق بك أيضاً ، فما ينبغي أن يزج الأطباء أنفسهم في

مشاكل الطلاق ، إن ذلك ربما سبب لك كثيراً من الضرر ..

ولكنها كانت تعلم حق العلم أن مثل هذه التعليلات لا حقيقة لها ..، وأن شيئاً أكثر أهمية من هذه الاعتبارات الدنيوية كان في طي القدر ..

وسألها :

– هل تعتقدين أنني أبالي بشيء من ذلك ؟

فقالت في عجلة ، وهي لا تزال تتحاشى النتيجة الحقيقية :

– حسناً ، أما أنا فأبالي بها كثيراً ، وانني لشقية منكودة إذا ما دفعت بك إلى مثل هذه الورطة ..

– إن شيئاً من ذلك لا يهم يا إيما ، فلست أبالي بأي شيء آخر ، كما يجب عليك ألا تدعي شيئاً يحتمل أن يحدث لي يؤثر في رأيك !

وأخيراً دنت من المشكلة الحقيقية فقالت :

– ليس الأمر كذلك فحسب ، فإنني لا أستطيع التخلي عن آن .

ورفعت عينيها اليه في ضراعة كأنها تناشده أن يفهمها ..

وأضافت :

– لا أستطيع ذلك البتة ..

قال ذلك وهو يتقبل كلامها موافقاً ..

ثم راح يراقب أصابعها المرتعدة وهي تمزق الخطاب الذي كتبته لزوجها ، ولم يكن قد اعتقد أو جال بفكره قط ان إيما تستطيع أن تواجه فضيحة علنية ، أو تصمد أمام الأنوار التي تهتك الأسرار في محكمة الطلاق ..

كانت كبرياؤها تثور لفكرة تعريض نفسها ، وأولئك الذين تحبهم – مايكل وابنتها – لأعين الغرباء الفضوليين ، وسوف تظل مخلصة لزوجها لأن إيما خلقت لتكون كذلك ..

وعادت تغمغم في صوت أجوف :

– إنها النهاية بلا ريب ، ولا جدوى في أن نخدع أنفسنا ..

وراحت تتطلع إلى الفضاء دون أن ترى شيئاً ، أو لعلهـــا كانت ترى أمامها مستقبلاً قاتماً حزيناً ، قبل أن تردف :

– ينبغي أن ينتهي كل شيء يا مايكل ..

فلما أحست بحركته السريعة إذ هم بـأن يخطو نحوها ، صاحت به ضارعة :

– كلا .. كلا .. لا تـلمسني ، يجب أن ينتهي كل شيء ، يجب ألا يرى أحدنا الآخر بعد ذلك البتة ..

وتهدج صوتها وازداد خفوتاً ، كأنما غصت بريقها ، وما لبثت أن أسرعت تعدو من الحجرة ، دون أن تنظر ناحيته ..

فسمع خطواتها الخفيفة تعدو هابطة فوق الدرج وتجتاز الردهة الرخامية إلى الباب الخارجي ..

ولم يرَ إيما رايت بعد ذلك قط ..

الفصل الخامس

انهمك مايكل جويس في عمله بعد ذلك واستغرق فيه وقد اعتزم أن يوصد أبواب ذاكرته إلى الأبد ..

وكان يعمل نهاراً وليلا ، كأنما انتابته حمى ، وهو يحاول عبثاً أن يقتل ذلك الألم والحنين اللذين ينهشان فؤاده نهشاً ..

بل لقد حاول بطريقة تحليلية أن يستأصل او يقلل من حدة ذلك المرض الذي تملكه – كما كان يدعوه لنفسه .

ولكنه كان يعلم ، انه بعد أن فقد إيما قد غدت حياته خاوية جوفاء ، لا معنى لها ، ولا غرض منها ، ولا بهجة فيها ..

وكان يعيش وهي ماثلة في ذهنه أبداً ، ووجهها وابتسامتها الساحرة يتراقصان أمامه ..

يراها حيثما سار ، وأينما ذهب !

في الغرباء الذين يصادفونه في الطريق ، وفي تلك اللمحة الخاطفة لرأس امرأة في المطعم .

وفي صباح يوم مشرق سني البهاء ، تحول عن النافذة وهو يتنهد في حزن ، إلى المنضدة التي كانت عليها خطابات الصباح تنتظره حتى يفضها ويقرأها ..

وفيما كان يهم بتناولها ، سمع رنين جرس الباب الخـــارجي ، دلالة على حضور أول عملائه ..

فمضى إلى الردهة حيث وقف عند قمة الدرج ، بينما مضت سكرتـيرته مس مارش تجتاز البهو في الطابق الأسفل لتفتح البـــاب ..

فـألقى عليهـا بتحية الصباح من قمة الدرج ، وردت تحيته ببشاشتهـا المألوفة ..

ثم أضافت بغير اهتمام :

– طاب صباحك ، اليس فظيعاً ما حدث لمسز رايت ؟

فجمد في مكانه وقال :

– مسز رايت ؟

– ألا تذكرها ؟ انها والدة الطفلة التي كادت تفقد بصرها .

وظل في مكانه شارد البال جزوعاً ، حتى فتحت البـاب وقـــادت سيدة متينة الأسر قوية البنيان إلى حجرة الانتظار ..

وبعد لحظات ، كانت كالأعوام بالنسبة اليـه ، بدت ثانيـة وتطلعت إلى أعلا ، وقد أدهشها أن تراه لا يزال واقفاً عند قمة الدرج ، كما أزعجها صوته وهو يقول :

– ما حدث لها ؟

– من ؟ آه ! مسز رايت ؟ أوه ، لقـد سقطت من إحـدى النوافـذ فدق عنقها ..

ثم مضت في طريقها تجتاز الردهة إلى مكتبها بالناحية المقابلة .

فلم يزد على أن غمغم :

– آه !

ثم إذا به تغيم عيناه ، وتتراقص الأشياء أمام ناظريه ، ويحس كأنه يسقط من علو سحيق ، والرياح تندفع في أذنيه ، ورخام الردهة السفـلى يدور حول

نفسه وهو يرتفع نحوه ..

فتشبث بسياج الدرج ، وشدد الضغط عليه بأصابعه ، ثم أغمض عينيه في قوة !

فلما فتحهما بعد هنيهة ، كانت الجدران والأرض قد استقام وضعها أمامه ، واستقرت في أماكنها ، فسار مترنحاً عائداً إلى حجرته فأوصد بابها عليه .

* * *

ثبت بجلسة التحقيق أن الحادث الرهيب قد وقع في الساعة السادسة مساء ..

لم يكن في المنزل في ذلك الحين سوى الطفلة آن ، وخادمة شهدت بأن من تدعى مسز كات هوارد قد زارت المنزل بعد الظهر ..

وكان مايكل قد مضى بسيارته إلى البلدة التي عقدت فيها جلسة التحقيق !

وذهب في هدوء إلى مكتب المحقق ، بينما كانت دوريس بوند - الوصيفة واقفة في مكان الشهود ..

وكانت قاعة المحكمة ملأى بالحضور ، ورجال الشرطة يقفون بجوار الجدران ..

ورأى في المقعد الأول آن بجدار سيدة أنيقة ترتدي السواد ..

تساءل :

- هل هي كات هوارد ؟ ..

ورجلاً لا ريب أنه طبيب العائلة !

وسيدة أخرى ربما كانت الطاهية ، وكان خلفهم صفوف من المتفرجين وهم ينصتون في لهفة واهتمام ..

فتسلل مايكل في هدوء وجلس بجوار الباب ..

عندما كان المحقق يرفع أنظاره عن التقرير الموضوع أمامه على المنصة ويقول للوصيفة :

– هل رأيت مسز هوارد وهي تنصرف ؟

– لقد رأيتها تستقل السيارة وتقودها خارجة ..

فسأل المحقق :

– متى كان ذلك تقريباً ؟

– يمكنني أن أقرر أنها كانت السادسة تماماً .

وكان وجه دوريس بوند صارماً كأنما تشعر بأهميتها ، كما جاءت اجاباتها واضحة في تأكيد ويقين ..

وتابع المحقق أسئلته :

– وبعد نصف ساعة من ذلك سمعت صوتاً كأنه صوت شخص ؟

– نعم ..

فأثبت المحقق شيئاً أمامه .

ثم قال :

– هذا كل شيء يا مس بوند ، وشكراً ..

فخطت من مقعد الشهود ، واتخذت مجلسها بجوار المرأة التي حدس مايكل أنها الطاهية .

بينما أشار أحد رجال الشرطة إلى السيدة الانيقة ذات الثوب الأسود .

فنهضت كات هوارد ومضت إلى المنصة .. وطلب اليها أن تقسم اليمين ..

فرآها مايكل جويس تضع يدها المدثرة بالقفاز على الكتاب المقدس ،

كما سمعها تقول :

- أقسم بالله ان اقول الحق ، كل الحق ..

وعندئذ ذكرها مايكل جويس ..

فهي نفسها السيدة التي كانت في منزله ذلك اليوم ، مع إيما بعد الجراحة التي أجريت لآن ..

فلما مضى صوتها الجلي الرقيق متمماً :

- ولا شيء غير الحق ..

تحولت بوجهها البيضاوي الحالل بالسواد نحو المحقق .

فقال لها :

- هل أنت مسز كات هوارد !

- نعم ..

- وعنوانك هو ..

فقاطعته في عجلة قائلة :

- انني اقيم في فندق اركاديا ..

- نعم .. ما هي قرابتك بالمتوفاة ؟

- لقد كانت زوجة أخي فيليب ..

فسأل المحقق :

- متى رأيت مسز رايت على قيد الحياة لآخر مرة ؟

- في نحو الساعة السادسة من مساء يوم الحادث ، وكنت قد قضيت معها زهاء الساعة ..

- لعلك كنت على موعد معها ، لتناول الشاي مثلاً ؟

فأجابت مسز هوارد :

- حسناً .. انه لم يكن موعداً بالمعنى المفهوم ، وكل ما في الأمر انها كانت تعلم انني قد أمر بها ..

– ولكن ، هل كانت يومئذ تتوقع حضورك اليها ؟
– حسناً .. انها لم تكن تتوقع ذلك تماماً ، فمنذ أن قتل زوجي اعتدت ان اهبط عليها كلما كنت قريبة من المنزل !
– وماذا حدث عند وصولك ؟
فأجابت في صوت واضح وبغير اكتراث :
– لا شيء ..
– هل تحدثتما ؟
– نعم .. لقد ثرثرنا بعض الوقت ..
– هل كنتما تتحدثان عن شيء معين ؟
– كلا .. مجرد ثرثرة عادية ..
فسأل المحقق :
– هل كان يبدو عليها الضيق او الاكتئاب ؟
– على العكس ، كانت بادية المرح والغبطة ، تتطلع إلى عودة زوجهـا للوطن في حنين ولهفة ..
فتململ مايكل جويس في مجلسه ، وراح ينظر إلى الشاهدة في امعان !
فلا ريب أنها كانت تعلم أن هذه اكذوبة صارخـة ، ومع ذلك فقد راحت تواجه المحقق بنظرات ثابتة ، هادئة ، متمالكة روعها تماماً .
واستطرد يسألها :
– هل كانت حالتها على غير ما يرام ؟
– كلا البتة !
– إذن .. فلم يكن في مسلكها ما يوحي بان هنـاك شيئاً غير عادي ؟
فاجابت في تاكيد :
– كلا .. لم يكن ثمة شيء بلا ريب ، ولكنها كانت دائمـاً شديدة

الخوف من المرتفعات ..

فردد المحقق قولها :

« كانت شديدة الخوف من المرتفعات ».

بينما كان يكتبه أمامه !

وما لبث ان واجهها بانظاره قائلاً :

– هل تعرفين انها قالت لك ذلك في هذا اليوم بالذات ؟

– حسناً .. كلا ..

– فلماذا إذن تذكرينه الآن ؟

فتصنعت الدهشة واتسعت عيناها في براءة وهي تجيب :

– لأنني ظننت أن هذا هو التعليل الوحيد لسقوطها من النافذة .

فعاد يسجل شيئاً أمامه في الورق ..

ثم فكر لحظة قبل أن يتابع أسئلته :

– ماذا كانت مسز رايت تفعل عندما تركتها ؟

– كانت في حجرتها ، وأظنها كانت على وشك استخراج درج جواربها !

ومرة أخرى عادت نظرات المحقق تستقر عليهـا برهة ، كأنمـا ينتقي كلمات سؤاله التالي .

وما لبث أن سعل ..

ثم قال :

– شكراً يا مسز هوارد ، هذا كل شيء !

فاستدارت كات هوارد ، وخطت من المنصة .

فأسرع مايكل ينحني إلى الأمام ، كأنمـا يلتقط شيئاً من الأرض ، حتى يحول دون أن تراه .

وكان وقتئذ مقطب الأسارير ، إذ على الرغم من مسلكهــا في منصة الشهود ، الذي ينم على استعدادها الطيب للاجابة على الأسئلة ومعاونة العدالة

في تبين الحقيقة .

كان مايكل جويس موقناً من أنها تخفي شيئاً .

كانت وثيقة الصلة بايما ، يراها كثيراً ، وكانت تعلم أن حياة إيما لم تكن على ما يرام ، وأنها في الأسابيع الأخيرة ، كانت متوترة الأعصاب شديدة القلق والضيق .

ومع ذلك فهي تقول :

« لقد كانت بادية المرح والغبطة ، تتطلع في حنين إلى عودة زوجها للوطن » .

فماذا ترمي اليه بتضليلها للمحكمة ؟

أهي رغبتها في أن تدع إيما ترقد في مضجعها الأخير مستريحة هانئة ، وتتحاشى المزيد من المناقشة والاستقصاء ؟

إذا كان الأمر كذلك ، فلا ريب أن كات امرأة على جانب كبير من رقة الشعور واللباقة ..

أتراها كذلك حقاً ؟

وسرت في القاعة موجة من الرثاء والاشفاق عندما مضت آن إلى مقعد الشهود ، في معطفها الأزرق المدرسي ، وساقيها الطويلتين النحيلتين وهما تترنحان قليلاً ..

وسألها المحقق أن تدنو منه حيث وقفت بجواره شاحبة الوجه بشعرها القصير الجعد تحت قلنسوتها الصغيرة .

وخاطبها المحقق في رفق قائلاً :

ـ آن ! لا ريب أنك تعرفين ما هو الحق ؟

فغمغمت مجيبة :

ـ نعم ..

ـ سوف أطرح عليك الآن بضعة أسئلة ، ويهمني أن تخبريني بالحقيقة

المجردة .

ثم ابتسم لها مشجعاً وهو يقول :

– هل فهمت ؟

فأومأت برأسها ..

– والآن .. متى رأيت والدتك لآخر مرة يا آن ؟

– قبل أن أذهب إلى فراشي بقليل .

– وأين كانت وقتئذ ؟

– في حجرتها ..

– هل دخلت الحجرة وتحدثت اليها ؟

فنظرت اليه بعينيها الصافيتين الزرقاوين ، كعيني إيما تماماً .

وأجابت :

– لقد ذهبت لألقي عليها تحية المساء ..

– وهل لقيتها ؟

– نعم ..

– هل كانت والدتك في حالة طبيعية ؟

فاختلجت أهداب الفتاة قليلاً ..

ثم قالت في اقتضاب :

– نعم ..

– والآن خبريني يا آن ا هـل كان بالحجرة شخص آخر عدا والدتك ؟

فترددت الفتاة لحظة وجيزة ، وعضت شفتها السفلى كأنما تريد أن تمسك دموعها عن الجريان .

ثم حولت نظراتها عبر القاعة إلى كات هوارد ، متوسلة ..

وكان مايكل يرقبها في امعان ، ويتتبع كل حركة تأتيها .

فرأى كات هوارد ترفع منديلها في رفق إلى عينيهـا ، ثم تشير برأسهـا

إشارة نفي سريعة ..

كانت حركة لا تكاد تميزها العين ، ولكنها كانت حافلة بالمعاني بالنسبة لآن ..

وعندئذ أجابت المحقق في وضوح :

– كلا ..

– ألم يحدث شيء يبدو غير عادي في نظرك ؟

– كلا ..

فانحنى المحقق فوق مقعده وراح يطرق بقلمه في تفكير ..

وما لبث أن قال :

– شكراً يا آن .. هذا كل شيء ..

وتبعها مايكل بنظراته وهي تعود إلى جوار عمتها ، كان هوارد .

وبعدئذ دعي طبيب العائلة للشهادة ، فأقسم اليمين ، وبدأ يدلي بتقريره الفني ..

وإذا كان مايكل مقتنعاً بأنه قد سمع كل ما يهم ، متلهفاً على ألا تراه آن وتعرفه ، فقد تسلل من قاعة الجلسة سريعاً واستقل سيارته عائداً إلى المدينة ..

وكان يقودها دون وعي ، وهو لا يشعر بشيء سوى مرارة الحزن وهول الخسارة .

فهي إيما ، إيما الضاحكة ، إيما الحبيبة إلى نفسه ، تموت ميتة شنيعة ، فجائية ..

وها هي إذ تموت ، تكشف أمورها الخاصة وتذاع وتناقش في محفل عام ، وقاعة المحكمة ملأى بالفضوليين ، معرضة بذلك لما كان كبرياؤها يأباه كل الأباء في حياتها .

وكانت تأتي لحظات يغبطها فيها ، وقد ماتت وغدت وحيدة لا يزعجها

شيء ، ولا تشعر بشيء البتة ، ثم يتملكه بعد ذلك شعور من الدهشة والعجب والحيرة ..

كيف ؟ ولماذا ؟

فقد كان يعرف ايما كل المعرفة ، وهي لم تشر قط إلى خوفها من المرتفعات أو من شيء آخر ..

بل لقد رآها ، إذ كان معها ذلك اليوم من أيام الخريف الأخيرة تنحني فوق حافة الصخور العالية ، وتراقب الأمواج وهي ترتطم بالصخور أسفلها بمئات من الأقدام .

فكانت متوردة الوجه ، رابطة الجاش وقد هز أعماقها الشعور بأنهما قد ارتفعا عن العالم وسموا فوقه ..

لم يكن بها أثر للخوف أو الوهم .

ولكن هذا التفسير الفجائي كان عسيراً على الفهم أو التفكير ..

وكان لجوء ايما الى الانتحار بعيداً عن كل تصديق ، فقد عرفت نصيبها في الحياة وتقبلته في رضى ، مضحية بسعادتها الشخصية ، وسعادته ، على مذبح شعورها بالشرف والوفاء نحو زوجها .

واذا كانت قد اولته ظهرها ، هو الذي احبته من كل قلبها ، لتكرس نفسها في تفان وبغير أثرة أو أنانية لطفلتها ولذلك الزوج .

فهل يصدق انسان انها تنحرف فجاة تحت وطاة اليأس ، فتقتل نفسها ، تاركة آن يتيمة ، وتاركة والد آن ليواجه الكارثة عندما يعود الى الوطن ؟

ذلك شيء بعيد الاحتمال يأباه العقل كل الاباء ..

وهي قد غادرت منزله ، للمرة الأخيرة ، كسيرة القلب ، ولكنها كانت قوية العزم ، على ان تبقى مع آن ، وان تنشئها فتربيها في جو أسرة سعيدة مترابطة ..

فما الذي حدث بعد ان تركته ؟

انه ليعذب نفسه بالأسئلة طول اليوم وهو يلغي مواعيده السابقة ويوصد أبواب عيادته .

ثم يبقى في حجرته ، ورأسه بين راحتيه ، مفكراً ، ممعناً في التفكير ، يستعيد في مخيلته كل ما عرفه عن إيما ..

وكان في بعض الأحيان يمضي إلى المعزف ، فتجول أنامله فوق مفاتيحه في رفق ، كأنما يبحث عن جواب لهذه الأسئلة في الموسيقى ، وكأنما يحاول أن يجلو ذهنه وسط النغم ..

ومع ذلك فلا جواب ..

كيف ؟ ولماذا حدث ذلك ؟

وحملت اليه صحيفة المساء عرضاً وافياً لما حدث في جلسة التحقيق .. بل لقد كانت في صدرها صورتها كأنها تتطلع اليه في حياء وخفر ..

فلما أنعم النظر فيهـا ، تبدت له خلالها صورة آن .. أكثر ما تكون شبهاً بأمها .

فعـادت ذاكرته إلى ما تبدى في أسارير الطفـلة من ضيق وأسى وهي تشيح بأنظارها عن المحقق ، ملتمسة العون والنجدة من عمتها كات ..

وعاد يذكر سؤال المحقق :

« هل كان مع والدتك أحد ؟ » .

ثم إشارة كات هوارد للطفلة ، تلك الاشارة الصريحة ، ثم إجابتها المقتضبة الوجلة ، وهي تقول :

« كلا .. » .

فما الذي كانت تخفيه آن ؟

وما الذي تعرفه تلك المرأة ؟

وسمع طرقاً على الباب جفل له وانتفض ..

فقد جاءت الوصيفة تسأله :

– هل ستعود لتتناول العشاء هنا يا سيدي ؟
فنظر اليها في فتور وغموض ، وقال :
– كلا .. إنني ..
وكأنما استقر عزمه على شيء إذ استطرد :
– كلا .. سوف أتناول العشاء في الخارج ..
ثم حرك الصحيفة بين يديه ، والقى بها جانباً ..
فقد أستقر عزمه على شيء يفعله ، شيء قد يعينه على تفهم مصرع ايما ..
فقد سمع كات تقول للمحقق :
– انني أقيم في فندق أركاديا !

الفصل السادس

لم يكن مـــايكل جويس قد فكر تماما كيف يبدأ حديثه مع مسز كات هوارد !

ولكنه ، عندما اجتاز أبواب الفندق العظيم ، بدأ الطريق أمـــامه سهلا ميسراً ..

وكان يعرف الفندق ، ويعرف جلبته وضوضاءه ، وفخامته وبذخــه ، ويعجب كيف يطيق بعض الناس الحياة في مثل هذا المكان ، دون ان تنهــار أعصابهم أو ينتابهم الصداع ..

وسأل الفتاة الجالسة في مكتب الاستقبال :

– هل مسز كاترين هوارد هنا ؟

فاجابته في نبرة آلية ، دون أن ترفع رأسها :

– إن الحفلة في جناح مسز ديفا بالحجرة رقم ٢٩ ..

– الحفلة ؟

وعندئذ تطلعت اليه قائلة :

– انني آسفة يا سيدي ، حسبتك أحد المدعوين اليها ..

فاجاب في عجلة :

– انني كذلك ..

– إنها بالحجرة رقم ٢٩ يا سيدي .. الطابق الثاني

وبادر يرتقي المصعد إلى جناح مسز ديفا المجهولة !

حيث راح يتفرس في تينك الحجرتين اللتين تكسو أرضها طنافس سميكة وتغطي نوافذها أستار كثيفة ، وقد زخرتا بحشد حافل من الرجال والنساء كانوا مكدسين فيها إلى درجة الاختناق ، وهم يثرثرون ويشربون وتتعـــالى ضحكاتهم ..

وكان يجول بينهم سقاة يرتدون سترات ناصعة البياض ، ويحملون صحافاً كبيرة رصت فوقها أقداح الشراب .

كما كانت أنغام الموسيقى تنبعث من مذياع أخفي في أحد الأركان ..

فلما بلغ مايكل جويس مدخل الجناح واجهته الضوضاء والحرارة وعطور السيدات ، كأنها عاصفة ارتطمت بوجهه بغتة ..

وتسلل إلى الداخل في حذر ..

وفي اللحظة نفسها اندفعت نحوه سيدة في منتصف العمر شقراء – تبين للتو انهـا كانت حـاضرة بجلسة التحقيق – وأمسكت بيـده اليسرى في حرارة وهي تقول :

– شد ما يسرني انك استطعت الحضور يا عزيزي ..

ثم القت عليه ابتسامة مشرقة وأردفت :

– لا أحسبني في حاجة إلى تقديمك ، فكل امرىء هنا يعرفك ،

وانثنت تصيح بفتاة كانت خلفه فلم يرها :

– آه .. هـــا هي جوان .. تعالي يا عزيزتي ، فلا ريب انك تعرفين مستر ..

وفي لباقة عجيبة تحاشت الاسم ، لجهلها به ، وحولت الحديث بغتـة إذ هتفت :

– ولكني لا أطيق ان ارى أحداً خلت يده من كؤوس الشراب .

وتناولت كاسين من الكوكتيل من فوق صحفة كان يمر بها أحد السقاة ، ووضعتها في ايديها .

ثم كشرت عن نواجذها في ابتسامة عريضة ، وتحولت تستقبل قادمة جديدة .

فسمعها مايكل تقول في صبحة حارة جديدة ، عبارتها التقليدية :

- شد ما يسرني أنك استطعت الحضور يا عزيزتي ..

وتحول مايكل إلى زميلته ، فالفاها حسناء فاحمة الشعر .

كانت تقول :

- هل لك ان تضع هذا القدح في مكان ما ؟ انني لا أستطيع أن أشربه . آه ! ها هي كات موارد ! ولكن رباه ، في يوم الجنازة ؟ كيف تجرؤ على ذلك ؟

فالتفت مايكل خلفه في بطء ..

وإذا بكات تقف متشحة بالسواد ، ووجهها البيضاوي يشرق بابتسامة وضاءة ، فوق حافة القدح الذي كانت ترشفه ، وقد أحاط بها لفيف من المدعوين .

كانت كما رآها في قاعة الجلسة تماماً ..

ولكنها كانت هنا أوفر حيوية ومرحاً ، يبدو عليها الاستمتاع بالحفلة إلى حد بعيد !

وراح يشق طريقه نحوها وهو يتمتم بكلمات الاعتذار والاستئذان يمنة ويسرة .

وكاد يفلح في الوصول إلى الحلقة التي تتوسطها ، عندما تصيدته مسز ديفا فجأة هاتفة :

- هل تركوك وحيداً يا عزيزي ؟

وكانت تقول لنفسها :

– أين بحق السماء التقطت هذا الشاب الجميل الفارع الطول الفاحم الشعر ؟ اني أعجب من أين هبط علي ، ولكن الأعجب هو كيف نسيت اسمه ، لا ريب أني فقدت عقلي ..

ثم عادت تقول في صوت مرتفع :

– هذا فتاة سوف تجن بك هياماً ، ولا ريب أنها تتوق إلى معرفتك .

فرأى مايكل نفسه وجهاً لوجه أمام امرأة نحيلة مديدة القامة ، كانت تبدو في حاجة قصوى إلى الطعام والنوم ، وكانت تنظر اليه في غير اكتراث .

بينما كانت العجوز تقول :

– سيلفيا يا عزيزتي ، إنك لم تتعرفي إلى بيتر من قبل ، ولكنه يموت شوقاً إلى معرفتك ..

ثم انتقلت مسرعة إلى جهة أخرى من القاعة ، وفي الوقت نفسه سمع خلفه شخصاً يسأل :

– من الذي وجد الجثة ؟

فغالب مايكل الحنق الذي اعتمل في نفسه ، وتحول إلى المرأة النحيلة قائلاً :

– هل اسمك سيلفيا حقيقة ؟

فتطلعت اليه في دهشة ، وهي تقول :

– وما في ذلك ، أتراه لا يروق لك ؟

ولكنه ابتسم قائلاً :

– لا شيء من ذلك فقط ، إن اسمي ليس (بيتر) .. والآن معذرة ، فقد وعدت بحمل هذا الشراب إلى شخص آخر ..

وأسرع يتسلل إلى الجمع المحيط بكات هوارد .

فسمع جوان تقول :

– يا المسكينة إيما .. سوف تترك فراغاً كبيراً لديك يا كات ..
وفي الوقت نفسه رأته كات ..
فرحبت به هاتفة :
– أهلاً بك يا دكتور ، انني لم أتوقع البتة أن أراك في حفل كهذا
فقال الطبيب :
– وأنا نفسي لم أكن أتوقع أن أحضر مثل هذا الحفل يوماً من الأيام
– انني لم أراك منذ أمد طويل ..
فابتسم لها قائلاً :
– انك تلوحين في حالة طيبة ..
– بل انني اليوم أشبه بالحطام ، فقد قضيت يوماً رهيباً تعساً ، ولعلك علمت من الصحف أن زوجة أخي – إيما رايت كما تعرف – قد سقطت من النافذة ، وقضت نحبها ..
فتظاهر بالأسى تأدباً ..
وغمغم :
– نعم .. لقد علمت بما حدث ، واني لشديد الأسف ..
فقالت كات هوارد :
– لقد عدت من الجنازة للتو ..
وفي تلك اللحظة اندفعت نحوها عجوز بادية الفضول ، صائحة :
– كارين .. يا عزيزتي المسكينة .. ما الذي حدث حقاً ؟ هل تعتقدين أنها هي التي ألقت بنفسها من النافذة ؟
فلم تعرها كات التفاتاً ، وظلت تبتسم لمايكل وهي تجيب في هدوء :
– كلا .. لم تفعل ذلك بلا ريب ..
فقالت العجوز :
– لقد كنت أقول لجيوفري أمس أن كارين المسكينة سوف يثقـــل

كاهلها بتلك الطفلة ..

– هل تعنين آن ؟

وكانت تقول ذلك في غير اكتراث ، مما جعل الألم يثور في أعماق قلبه ، ولكنه كبت شعوره .

بينما كانت المرأة تبتعد عنهما وهي تهتف :

– لا تذهبي يا كاترين قبل أن أسمع القصة كلها ..

فلما انصرفت ، قالت كات :

– شد ما تضايقني بأسئلتها السخيفة ..

فقال مايكل :

– أهي صديقة لك ؟

فتطلعت اليه بعينيها الساحرتين خلال أهدابها الطويلة المثقلة بالطلاء ، وقالت :

– ان كل أمرىء يبدو صديقاً لي هذه الأيام ، وكل ذلك بسبب إيما المسكينة فهم يودون أن يعرفوا جميع التفاصيل المروعة ..

وكانت ترشف الشراب في رشاقة ، فقال مايكل وهو يبتسم لها مشجعاً ابتسامة ذات مغزى :

– يجدر بنا أن ننصرف من هنا إذا أردت ألا تلاحقك صديقتك هذه بأسئلتها ..

فبدا عليها الابتهاج ..

وغمغمت تقول :

– يا لها من فكرة موفقة ، فلو بقيت لسقطت في الفخ كالجرذ .

وبينما كانا يجتازان الحجرة ، التقت بهما سيلفيا النحيلة ، وقد بدا عليها الاهتمام أخيراً ..

فقالت :

- ينبغي أن أعلم منك الحقيقة يا كات ، فإن زوجي يقسم بأن شخصاً قد دفعها من النافذة ، وان الحقيقة قد خنقت في مهدهـا تجنبـاً للفضيحة ، فتعالي نجلس معاً في ركن هادىء ، إذ انني لا أطيق أن أظل في ظلام دامس لا أعرف الحقيقة ..

فـألقت كات نظرة حزينة نحو مـايكل ، وخطت إلى الأمام لتتجنب المرأة ، وهي تقول :

- اني حقاً لا أستطيع ذلك الآن ، فيجب أن ..

فأسرع مايكل ينظر إلى ساعته ، ويضيف لينقذها من الورطة :

- ان تتصلي بوالدتك تليفونياً ..

فبدا عليها الارتباك لحظة ..

ثم اومأت إلى سيلفيا قائلة :

- نعم .. والدتي .. إلى اللقاء يا عزيزتي ..

وتمهلت برهة عند الباب لتقول له :

- انك حقاً نعمة ارسلتها لي السماء ..

وفي اللحظة نفسها وجدا أمامهما مسز ديفا كأنما انشقت الأرض عنهـا فجأة ، قائلة :

- انك لن تنصرفي الآن يا عزيزتي كات ! الا تتناولين العشاء معنا ؟

فأجابت :

- لم اعد اطيق احتمال أسئلتهم الرهيبة ، اما العشاء ..

ونظرت إلى مايكل من طرف خفي ..

ثم استطردت :

- فلا تحسبي لي حساباً فيه ..

وسرعان ما تشبثت بذراعه وصاحت :

- أسرع .. فها هي تلك العجوز المروعة ثانية .

ولوحت بيدها لمضيفتها هاتفة :

ـ سوف أراك فيما بعد يا عزيزتي ..

وظلت مسز ديفا ترقبهما وهما ينصرفان معاً ، وتعجب هل تحب كارين هوارد حقاً ، صديقتها الحميمة ؟ وهل تحبهما كارين ، وهي تنصرف من الحفل مع أجمل رجالها مظهراً ، بعد أن وعدتهم بأن تبقى لتقص عليهم كل شيء من أنباء جلسة التحقيق ؟

* * *

صحب مايكل (كات هوارد) لتناول العشاء في أحد المطاعم الفاخرة المكتظة بالرواد ، لا تلك المطاعم الهادئة الصغيرة التي كانت إيما رايت تحبها ويفضلان ارتيادها ..

وقد وافقت كات على اختياره وقالت :

ـ إن ذلك المطعم هو الوحيد الذي يمكنك أن تتناول الطعام فيه في راحة ويسر ..

وكانت بادية الابتهاج بفرقة الموسيقى ذات العازفين الثمانية ، وبالمائدة الخاصة التي اضطر مايكل إلى رشوة رئيس الندل ليحجزها لهما ..

وما كادت تستقر في مكانها حتى انطلقت تقول :

ـ أخشى انني لا أرتدي ثياباً تليق بهذا المكان . فلم تكن لدي لحظة واحدة لاستبدال ثياب أخرى بهذه ، إذ عدت من الجنازة مباشرة ، لقد كانت اليوم ، كما تعلم ..

ـ حقاً ؟

وفي الضوء المظلل لمصباح المائدة ، المنعكس عند غطائها الأبيض ، راحت

تتفحص زينتها في مرآة صغيرة ..

وكان الخمار الأسود ، المحيط برأسها وذقنها أشبه بإطار من الأبنوس يحيط بصورة جامدة لوجه مقنع لا تنم أساريره عن شيء ..

وكانت تحلي صدرها بشابك من الماس تتــألق فوق السواد كالنجوم في ليلة ظلماء ..

فعجب مايكل ، هل تعد هذه الحلى من لوازم الحزن ؟

وكانت تبدو أنيقة ..

وفيرة العناية بهندامها ..

ولولا السواد الذي ترتديه لما حسب انسان أنها قادمة للتو من جنازة صديقتها وزوج أخيها ..

فلما اطمأنت إلى كمال زينتها ..

غمغمت قائلة :

— حمداً لله أن فرغنا منها سريعاً ..

وعندئذ سألها :

— ما الذي انتهى اليه أمر آن ؟

فتطلعت اليه مشدوهة وقالت :

— آن ؟ هل تعرف آن ؟

فأجاب مايكل :

— لقد أجريت لها جراحة منذ بضعة شهور ..

فضحكت وقد زال عنها ذلك القلق العابر ..

ثم هتفت :

— نعم .. نعم .. يا لي من حمقاء .. لقد خيل الي أن أمامي أحد أولئك الفضوليين الذين كانوا في الحفلـة .. فقد كدت أنسى أين رأيتك لأول مرة .

فرد الطبيب :
– حسناً .. ما الذي صار اليه أمر آن ؟
– أوه .. لقد ذهبت إلى (بات) .. فإن لوالدتي منزلاً هناك .. ولم أستطع الذهاب معها لأني على خصام مع والدتي ، ولو أنك قد لا يهمك ذلك ..
– على العكس ، بل يهمني ..
– هذا تلطف منك أشكرك عليه ، ولكن الواقع انني أهذي ولا أدري عن أي شيء أتحدث ، حتى ليخيل الي أن جيني ديفا قد مزجت الشراب بمادة تزيد من أثره .
– سوف يزول عنك ذلك عندما تأكلين ..
وكان يرى أن مهمته قد تكون سهلة ميسرة إذا انطلق لسانها من عقاله .
ومن ثم استطرد يسألها :
– وماذا حدث للمنزل إذن ؟
فنظرت اليه كأنما لا تفهم ما يقوله ، وغمغمت :
– أي منزل ؟
– منزل مسز رايت ..
فبدا عليها الضيق ، وقالت :
– آه ! إنه معروض للبيع ..
– هكذا سريعاً ؟
– لقد نقلنا آن منه ليلة موت أمها .. ولن يطيق فيليب رؤية المكان ثانية ، ولذلك فهو خال الآن .
فخيل اليه أنه يرى الواجهة العريضة لذلك المنزل المظلم القائم وسط الأشجار والحدائق كالطود الشامخ .

لقد أقفر الآن من ساكنيه ، فقد غابت إيما عن جنباته إلى الأبـد ، كما غابت إيما عن حياته إلى الأبد ، وغدا كل شيء في الحياة بعدهـا خلاء مقفراً ..

واغمض مايكل عينيه لحظة سريعـة ، وهو يصغي إلى نبضات قلبه تهمس باسمها :

– إيما .. إيما .. إيما ..

وعندئذ سمع صوت كات تقول في صبر نافذ :

– ألا يفكر أحد في احضار قائمة الطعام لنا ؟

فاستجمع مايكل قواه وحواسه ، وصاح ينادي الساقي .

ثم راح ينتقي لها الوان الطعام ويبذل جهده في الظهور بمظهر الابتهـاج والمرح ، واستحثها على أن تحدثه عن نفسها ، في حين كانت ملاحظاته عليها متملقة مادحة ..

ولقد عمد إلى الاغراق في رعايتها وتسليتها واشاعـة الغبطة في نفسها ، بينما كان يرقبها في امعان كما لو كانت إحدى المريضات جيء بهـا أمامه ليشخص مرضها ..

ولا ريب أنه نجح معها إلى حد معين ، ففي ساعة متـأخرة من تلك الليلة ، عندما أوقف سيارته أمام باب الفندق وساعدها على الهبوط قالت :

– ليس في وسعي أن أفيك حقك من الشكر ، فقـد أنقذتني من حفـلة سقيمة ، وخففت عني همومي ومتاعبي .

ثم ابتسمت له في انتصار ، وأردفت :

– أيكون من سبق الحوادث أن أرجو لقاءك مرة أخرى ؟

فأجاب في تردد :

– لو صبرت لحظة واحدة لسمعتني أقترح عليك ذلك ..

فلاح في محياها السرور وغمغمت :

– هيا اقترح إذن ..

– هل ستكونين حرة مساء الغد ؟

– في وسعي أن أكون .. أين ؟

– بالمطعم نفسه .. حوالي الساعة السادسة ، في المقصف !

– حسناً .. طاب ليلك !

ومدت اليه يدها المغطاة بالقفاز .

فضغط عليها ضغطة سريعة ..

ثم مكث مكانه حتى رآهـا ترتقي الدرج في رشاقـة ، ثم تختفي خلف الباب الدار .

الفصل السابع

استقر عزم مايكل جويس على أن يقوم بزيارة لمنزل إيما الخالي ..

فغادر لندن ذات مساء ومضى بسيارته في الطريق الريفي المقفر ، نفس الطريق الذي اجتازه مرة من قبل ، وإيما إلى جانبه ..

ومع أن الحافز له على هذه الزيارة كان عاطفياً بحتاً ، أساسه الحنين إلى ارتياد ربوع الحبيبة الخالية .

إلا أنه لم يكن قد رأى منزل إيما من قبل .

وخيل له أنه إذا استطاع أن يلقي عليه نظرة فلعل ذلك يوحي اليه بحل لهذا اللغز المستغلق ..

لغز مصرع إيما الفجائي .

وبدا له الطريق طويلاً الليلة ، حتى لقد بدأ يخشى أن يكون قد ضل سبيله وسط الأحراش والقفار التي تمتد أمامه وعلى جانبيه تحت سماء صافية ..

فراح يتقدم بالسيارة في بطء وتمهل ، متفرساً في معالم الطريق حواليه ، حتى لاح له المعبد القديم الصغير ، قائماً داكناً في مكانه المعهود .

وإذ اطمأن إلى أنه يسير في الطريق السوي ، أغمض عينيه وضاعف من سرعة السيارة ، وهو يجهد في إبعاد ذكرى تلك الليلة ، عندما وقفت إيما

مرتكزة إلى الجدار الحجري الصلد ، تخبره انها تحب هـذا المكان ، وتحس بالراحة والدعة فيه ..

حسناً .. ها هي ذي إيما الآن في راحة أبدية وسلام دائم .

وأوقف السيارة في الممر المؤدي إلى المنزل وأنوارها مطفأة ، بمثل ما فعل في تلك الليلة ، عندما وقفت تودعه ، وتحييه تحية الفراق .

وكان المنزل الكبير الشامخ يحيط به سكون شامل ، لا ينبعث منه بصيص من ضوء أو همسيس من صوت .

فانثنى يطوف حوله باحثاً عن منفذ يلج اليه منه

ولكنه وجد الأبواب جميعاً محكمة الغلق ، والنوافذ موصدة لا سبيل إلى اقتحامها .

وأخيراً وجد نافذة صغيرة بجوار المدخل الرئيسي ، أدرك أنها تؤدي إلى الردهة !

فتناول قطعة من الحجر وحطم بها أحد الألواح الزجـــاجية ، فتناثرت شظايا الزجاج على الأرض في رنين حاد تنقبض له النفس . وتلفت مـــا يكل حواليه ، وهو يرهف السمع برهة قبل أن يمد يده خلال الثقب فيـدير مقبض النافذة ويفتح مصراعيها .

ولم يسمع حساً أو حركة .

فقد كان المنزل خاوياً مهجوراً ، وعندئذ تسلق حافة النافذة في عجلة ، وما لبث ان وثب منها إلى الداخل !

وكانت خيوط متــألقة من ضوء القمر ، تنعكس على الأرض اللامعة المصقولة ..

فلما اعتادت عيناه الظلام استطاع أن يميز في نهاية الردهة ثغرة في الضوء أدرك أنها باب مورروب .

فمضى نحوه ورفعه في رفق ففتحه .

وإذا بضوء القمر يتسلل من نوافذ عريضة عالية تؤدي إلى الشرفة ، التي تنتهي بدرج صغير يهبط إلى الحديقة .

وانبعث خلفه في الحجرة فجأة هدير خافت . أعقبه صوت ارتطام شيء بالأرضية ..

وتلا ذلك رنين إيقاع منتظم قوي .

فاستدار على عجل ، حيث رأى الهرة الخائفة تعدو فزعة ، على حين استقر جسم معدني صغير مثلث الشكل على الأرض تحت المعزف .

فمضى اليه والتقطه ، وإذا به جهاز يشبه الساعة المنبهة ، خصص لضبط الايقاع الموسيقي . فأعاده إلى مكانه ، حيث استمر في رنينه المتتابع القوي ..

كانت هذه حجرة الجلوس ، الحجرة التي اعتادت إيما ان تقضي فيها أوقات الفراغ .

كان كل شيء فيها كما تركته ..

فها هو ذا معزفها الكبير لا يزال مفتوحاً ..

وخطر له أن يجري أنامله فوق أصابع المعزف ، تلك التي طالما مستها أنامل إيما من قبل وذكر قولها :

« إن في الموسيقى راحة ودعة ، إذا ما شعر المرء بالوحدة » ..

ترى هل يلقى فيها شيئاً من الراحة والدعة يوماً من الأيام ؟

ونظر إلى النوتة الموسيقية الموضوعة في مكانها فوق قمة المعزف ، كانت إحدى مقطوعة موزار الخالدة ..

ثم نظر إلى جهاز الإيقاع الآلي ..

لقد كانت تدرب آن على العزف هنا ..

في هذا المكان بالذات ..

وتعلمها كيف يطابق عزفها إيقاع الجهاز !

وعندئذ مد يده وأسكته ..
فساد الحجرة صمت عميق .

وغادر قاعة الجلوس ، فارتقى الدرج المؤدي إلى الطـابق العلوي ، حيث طاف بعدة حجرات وجدها كلها مظلمة وقد اسدلت الأستار على نوافذها .
ولكن احداها لم تكن حجرة إيا .
فلما ولج حجرة أخرى بعد ذلك ، أدرك للتو أنه في حجرتها ، فما زال بها أريج خفيف من عطرها الحبيب ..
ولا ريب في أن هذه الحجرة تبدو بالنهار فسيحة ، جميلة ، تسبح في أشعة الشمس ..
أما الآن في الظلام ..
في غيبتها ، فهي مقبضة موحشة ملأى بالظلال .

وعندئذ مضى نحو النـافذة ، فجذب أستارها الثقيلة في حركة سريعة وحشية ، وإذا بضوء القمر ينصب فوقه فجأة قوياً شديد السطوع .
وفتح النافذة دفعة واحدة .
فلما انفرج مصراعاها ، واجهه نسيم الليل عليلاً هفافاً ، وعبير الأزهـار رقيقاً منعشاً .

وكانت النافذة من طراز طويل ، يمتد من السقف إلى مـا يقرب من الأرض ، فلما وقف بجوارها يتطلع إلى فضاء الريف في وجوم وحزن ، وجد قاعدتها تبلغ إلى ما دون ركبتيه ..
وكان يستطيع أن يرى في الناحية المقابلة ذلك المعبد الصغير الذي سحر إيا وأزعج كات ..

ولم تكن تنبعث منه أنغام الأرغن وقتئذ ، كما لم يكن ثمة منـازل أو أكواخ أخرى على مرمى البصر ..
لا شيء سوى تلك الحقول والأحراش ومئات الأشجار الباسقة المورقة .

ونعبت بومة من مكان قريب مرتين ، فأثار نعيبها كوامن حزنه .

فكم من مرة وقفت إيما في هذه البقعة نفسها ، وقد ارتاحت نفسها إلى السكون الساجي ، وإلى منظر التلال المنحدرة وشريط الماء الذي يتألق أسفل الوادي ..

وتحولت أنظاره في بطء عن الأفق إلى أرض الحديقة تحته ..

كان الفناء الصغير الذي رصفت أرضه بالحجارة المصقولة ، والمؤدي إلى الشرفة ، يبدو من هذا الارتفاع السحيق ، كرقعة شطرنج صغيرة داكنة ذات خطوط متوازية قائمة ، تحيط بها أحواض الزهور المختلفة ..

ولا ريب أن إيما كانت ترى هذه الرقعة ، بمثل ما يراها الآن ، آخر ما رأت ، قبل أن تهوى من حالق ، فتستقر فوقها كومة من الحطام ، لا حياة فيها .

وامتلأت أذناه فجأة بطنين هائل غير مألوف ، واختلط المنظر أمامه لحظة فلم يعد يميز منه شيئاً ..

ولكنه ما لبث أن عاد واضحاً مرة أخرى ، وهو يرتفع مندفعاً نحوه ، وشعر كأنه يهوي من علو سحيق ، في سرعة خارقة ، والفضاء يدور به حوله ورقعة الشطرنج تدنو منه كقطار ينقض نحوه .

فتشبث بقاعدة النافذة في قوة ، وقد سرت الرعدة في بدنه ..

وكأنما أعاده ملمس الخشب الخشن إلى صوابه ، فارتد إلى الخلف مجفلاً بعيداً عن النافذة ، وأخفى عينيه بكلتا يديه وهو يترنح في وسط الحجرة كالثمل ، وقد هز الرعب كيانه هزاً ..

إذ كان يرى أمامه بعين الخيال (إيما) وهي تهوي إلى أسفل من الفراغ الرهيب إلى عالم الفناء .

فلما قسر نفسه أخيراً على العودة إلى النافذة ، كان وجهه شديد الشحوب ، ينساب العرق البارد فوقه في أخاديد جديدة ، لم تكن به

من قبل .

ولم يجسر على التطلع من النافذة مرة أخرى ، فمد يديه وأوصدها ثم أعاد الأستار إلى مكانها

فساد الظلام فيها من جديد ، بعد أن احتجب ضوء القمر ، ولم يعد حوله سوى حجرة إيما الخاوية ..

وسوى أريج عطرها الخفيف ..

وكانت جنبات الردهة والبهو تتجاوب صدى وقع أقدامه فوق الدرج الحجري وهو يهبطه في عجل كأنما تطارده أشباح رهيبة ..

فلما عاد إلى حجرة الجلوس مضى قدماً إلى المعزف فأدار جهاز الايقاع ، وقد سرح فكره إلى أغنية يتفق ايقاعها مع دقاته الرتيبة :

« سيدتي هل لك أن تسيري .. سيدتي هل لك أن تتحدثي » ..

فمد يده وأسكت الجهاز ..

ثم جلس في الظلام على المقعد الصغير أمام المعزف ، وراحت يداه تمران على مفاتيحه في غير وعي ، عازفة تلك الأنشودة الخفيفة ، كما عزفتها ايما في تلك الأمسية ، وهي تصلح المواضع التي اخطأت فيها آن في الاسطوانة ، وقد بدا في أساريرها الزهو والحنان ..

وسمع وقع نبراتها الرقيقة وهي تقول :

« لقد أخطأت في هذا الموضع » .

وكان يعزف الأنشودة ، غافلاً عن الزمان والمكان ، مستغرقاً في ذكرياته عنها ، وفي الموسيقى التي طالما استمعا اليها معاً !

وفجأة انبعث الضوء في الحجرة في مثل وميض البرق ، يبهر العيون ويكشف عن الأثاث العتيق الفاخر ، وأواني الزهور الفارغة الا من بقايا جافة ذابلة ..

فغشيت عيناه لحظة ، وتراخت يداه الى جانبيه ..

ثم استدار على عجل !

واذا به يرى في باب الحجرة كهلاً موخط بالشيب ، مكتنز الوجه نامي اللحية ، يرتدي قميصاً مفتوحاً ، ويقف جامداً لاهث الأنفـاس مشدوهاً ، وما لبث أن غمغم :

ـ يا لله ! انه من البشر !

فصاح به مايكل حانقاً :

ـ من أنت بحق الشيطان !

فأجاب الكهل ، وقد استمد من المفاجأة والفزع قوة :

ـ هذا ما ينبغي أن أسألك عنه .

ـ لم أكن أحسب أن أحداً هنا ..

فزمجر الآخر وقال :

ـ لا عجب ان حسبت ذلك ، ولذلك سأقبض عليك بتهمـة السطو على منازل الغير !

فلما قهقه مايكل ضاحكاً ..

أردف الكهل في تردد :

ـ لعلك من لحم ودم مثلنا ؟

ـ هل كنت تتوقع أن ترى شبحاً ؟

فلما اقتنع الكهل ان الذي أمامه من البشر ، ارتدت الدماء الى وجهه بعد فرارها ، وأجاب :

ـ ألم تكن تتوقع ذلك لو كنت في مكاني ؟ لقد قضت السيدة نحبها منذ أربعة أيام فحسب ، وكانت نهايتها عنيفة مروعة ، وقد سمعتها كثيراً منذ ذلك اليوم ، ولكنها لم تكن تعزف على البيان .

وكان صوته صوت شخص يقرر حقيقة ثابتة .

بحيث قال مايكل في احترام :

– اتعني انك سمعتها ورأيتها ؟

فأومأ برأسه الأشيب وقال :

– انها لا تدعني أراها قط ، ولكني اسمع قعقعة أخشاب الدرج ، فلا اجد في نفسي الجرأة على الدخول لرؤيتها !

وكان صوته يفيض حناناً وهو يقول ذلك .

وما لبث ان تنهد في أسى ، وكأنما استقر عزمه على امر ، فخطا الى الأمام قائلاً :

– والآن .. هل انت قادم معي في هدوء ام أدعو رجال البوليس ؟

فأحكم مايكل معطفه ورفع قبعته ، ثم مضى نحوه قائلاً :

– هل انت المكلف بشؤون هذا المنزل ؟

– اني الحارس ، فقل لي هل أخذت من هنا شيئاً لا يخصك ؟

– كلا ..

فلما اطمأن الكهل وارضى ضميره ، تبع مايكل الى الردهة وهو يقول :

– خذها نصيحة مني ، عندما تسطو على منزل في المرة القادمة فلا تبدأ بالعزف على البيان وإلا خرجت صفر اليدين الى السجن قدماً .

فغمغم مايكل موافقاً !

فلما بلغا الباب الخارجي ، تمهل قائلاً :

– هل كنت تعرف السيدة التي كانت تملك هذا المنزل ؟

فقال مايكل :

– اعرفها ؟ لماذا ؟ لقد اشتغلت عندها عشر سنوات ، كنت خلالها الموكل بالعناية بالحديقة ..

– البستاني ؟ كلاي ؟ هل أنت الذي كنت تعزف على الأرغن في المعبد ؟

فتطلع اليه مشدوهاً وقال :

– ماذا ؟ هل تعرفني ؟ اصغ الي اذاً ، ليس ثمة ما يدعو الى وقوفنا

هنا في هذا الجو البارد ، لماذا لا تأتي معي إلى حجرتي فتتناول قدحـــاً من الشاي ؟

فقال مايكل في اخلاص :

- ليس أحب إلي من ذلك .

ثم أضاف بعد لحظة :

- لقد فهمت أن مسز هوارد لم تكن تسر بعزلتك على الأرغن ..

فبدا الاشمئزاز والنفور في محيا كلاي وصوته حتى خيل إلى مايكل انه سوف يبصق اشمئزازاً ..

ثم قال :

- مسز هوارد ؟ مسز هوارد التي تدس أنفها في شؤون كل شخص ، لقد جعلت حياة السيدة المنكودة جحيماً لا يطاق ..

وبدت المرارة في أسارير الكهل المغضنة ، عندما تحول يقود مايكل إلى داخل الردهة ثانية ..

ثم إلى درج حجري يؤدي إلى قبو المنزل ، حيث دخلا حجرة يشع منها الدفء ويضيؤها مصباح صغير ..

حيث كان ابريق الشاي موضوعــاً فوق الموقد ، والبخار يتصاعد من فوهته ..

وكان في وسط الحجرة منضدة صغيرة ، تناثرة فوقهـا أوراق اللعب من النوع الذي يتسلى به المرء بمفرده قتـــلاً للوقت ، وأدوات الشاي المختلفة ..

فقد كان كلاي يعيش في عزلة ..

ولذلك ، كان السرور بادياً في وجهه إذ يجد من يجلس معه ويؤنس وحدته

واستحث مايكل على الجلوس وهو يقول :

ـ يا لها من مأساة مروعة ! ولمثل هذه السيدة الرقيقة !

ثم أردف في مرارة :

ـ انني عادة اكون في فراشي في مثل هذه الساعة ؟

فقال مايكل :

ـ لو انني إذاً تأخرت قليلاً ، لاستطعت أن أعزف على البيانو في سلام ودعة . .

وكان كلاي قد اقتنع بأن السطو على المنزل لم يكن سوى مزحة من هذا السيد المهذب . .

فقال :

ـ بل لو انك اخترت الليلة المناسبة لأمكنك أن تقضي الوقت كله كأنك في منزلك دون أن يزعجك أحد . .

ـ آه . . حقاً ؟

ـ انني امتطي الدراجة إلى منزل أختي دائماً في أيام الجمعة ، حيث أذهب لرؤيتها والمبيت عندها .

وكان قد ملأى قدحي الشاي وجلس في مواجهة مايكل . .

بينما ضحك هذا قائلا :

ـ شكراً على هذه المعلومات الطيبة ، فلو كنت لصاً لأمكنني ان أفيد منها !

فأومأ كلاي برأسه إيماءة العليم ببواطن الأمور وقال :

ـ كلا . . إنك لست لصاً . .

ورشف مايكل جرعة من الشاي القوي قبل أن يقول :

ـ لقد كنت أعرف مسز رايت . ولذلك أردت ان ألقي نظرة على مسرح الحادث .

فطرق كلاي المنضدة بقبضة يده وصاح :

- الحادث ؟ انه لم يكن حادثاً قط ..

وشعر مايكل بالانفعال يسري في عروقه ، وقال :

- ولكن المحقق قال انه كذلك ..

- اصغ الي .. هل يبدو لك انه من المعقول ان تسقط السيدة من نافذة طالما نظرت منها خلال عشرة أعوام برمتها ؟ وهي سيدة في تمام صحتها لا تخشى الأشباح ، ولا تخاف من المرتفعات ، بغض النظر عما قاله بعض الناس في جلسة التحقيق .

وتمهل لحظة قبل ان يستطرد :

- إنها شيطان رجيم ، تلك المرأة مسز هوارد ..

فقال مايكل وهو يحرك قدحه في بطء :

- أحسب انك تكره تلك السيدة . ولذلك تعتقد أن لهـا يداً في الأمر ..

وعندئذ ثارت ثائرة الكهل .

فانطلق يقول محتداً :

- لست وحدي الذي يقول ذلك ، ان دوريس الوصيفة ، وكذا الطاهية تشاركانني في اعتقادي ، ان مسز هوارد لم تكن تترك مسز رايت في سلام قط ، كانت دائماً تثير الشجار ، وتريد أن تملي ارادتها عليها بشأن ادارة المنزل أو تربية الطفلة .. وكانت على الدوام تستفزها وتهيج مشاعرهـا ، وهذا هو السبب في انها اضطرت رغم انفها إلى الرحيل من هنا ..

- اضطرت الى الرحيل ؟

فقال الكهل :

- لقد أتت لتقيم هنا بعد مصرع زوجها ، ولكنها لم تمكث طويلا .. كانت لا تكف عن طلب النقود ، وغيرها من الأشياء النفيسة ، واخيراً وقع حادث السجادة .

فسأل مايكل :

– وما هو حادث السجادة ؟

– آه ! لقد سرقتهــا ، اعني مسز هوارد ، وقد جعلت مسز رايت الأمر يبدو كأنها هي التي وهبتها اياها ، ولكننا كنا نعلم الحقيقة .

فذات صباح ، في نحو الساعة التاسعة ، أتت سيارة نقل ، فحمل سائقها تلك السجادة ومضى بها ..

وقد ذكر ان مسز هوارد باعتها لقاء مبلغ زهيد، وكانت أحب السجاجيد إلى مسز رايت ، فهي واحدة من السجاجيد الثمينة الشرقية .

وقد أقلقت هذه الأمور مسز رايت المسكينة ، وهي سيدة لطيفــة رقيقة الشعور ..

فطأطأ مايكل رأسه وغمغم في نبرات متهدجة :

– لقد كانت كذلك حقاً .

وظل يصغي طويلاً إلى ثرثرة الكهل بعد ذلك ..

وأخيراً نهض قائلاً :

– يجدر بي أن أنصرف الآن ..

فتبعه كلاي فوق الدرج المؤدي إلى المطبخ وهو يتــابع حديثــه قــائلاً :

– نعم .. وقد حاولت أن تطردني من هنا زاعمة أنهــا لا تطيق عزفي على الأرغن ، وبهذه المناسبة ، هل تحب الغناء ؟

فابتسم مايكل في حزن وقال :

– إنني لم أغن منذ زمن طويل ..

وكأنما أسف الكهل لحرمانه من رفيق يشاطره الحديث ..

فقال :

– انني لا أجد من أتحدث اليه إلا عنــدما أذهب إلى أختي فأقضي

الليل عندها !

- ربما حضرت إلى هنا ثانية ليلة ، فهل يروقك ذلك ؟

فأشرق وجه كلاي بالبشر وقال :

- أجل .. تعال كلما طاب لك أن تفعل ، ولكن لا تأت أيام الجمعة ، فلن تجدني هنا ..

وأدار نظراته حواليه برهة . متطلعاً إلى حجرات الطابق الأعلى ..

ثم همس لمايكل في اهتمام وأسى :

- إذا شئت ان تعرف رأيي ، فهو ان مسز هوارد قد دفعتها من النافذة ..

فشعر مايكل بقلبه يخفق في عنف .

ولكن صوته كان هادئاً إذ قال :

- آه ! انني واثق من أن ذلك غير صحيح ، فلماذا تقدم مسز هوارد على شيء كهذا ؟

فتطلع اليه كلاي لحظة ، كانت أساريره فيها تنطق بالصرامة والجد ، كما كان صوته ينم عن اقتناع عميق وهو يجيب في بطء :

- سأقول لك شيئاً واحداً ، هو أنها خليقة بأن تفعل ذلك ؟

فقال مايكل :

- مهما يكن من أمر ، فقد ذكرت الوصيفة في التحقيق ان مسز هوارد غادرت المنزل قبل الحادث بنصف ساعة ..

فأجاب الكهل :

- لقد قررت دوريس ذلك لتقي ذكرى سيدتها شر القيل والقال ..

وبينما كانا يتصافحان ..

قال مايكل :

ـ حسناً .. أرجو ان تكون مخطئاً ، من اجل مسز هوارد !

فزمجر كلاي متبرماً ..

كان يعرف مسز هوارد جيداً ، ولن يمكنك ان تزعزع يقينه مهما قلت له او عارضت آراءه فيها ..

وصحبه مايكل الى الباب الخارجي في صمت ..

وهناك لم يزد على أن يقول :

ـ طابت ليلتك ..

ـ وليلتك يا سيدي ..

وكان مايكل يهم بادارة محرك سيارته عندما سمع باب منزل ايسا يوصد خلفه بصوت مسموع ..

الفصل الثامن

أمر مايكل جويس بأقداح الشمبانيا ، واشعل لكات سيجارتها ..

وكان من يراه يحسبه ينفق حياته ، بعد الأوان ، في المطـاعم والمشارب وحلقات الرقص من أجلها .

ولكن الوقت لم يكن لينفق عبثاً ..

فقد كانت كات ممن يفضن في الحديث عن أنفسهن .

ولا ريب أنها في احدى تلك الأمسيات سوف تدع لسانها يفلت كلمـة عابرة يعلم منها مدى ما تعرفه عن موت إيما ، فقد كان واثقاً أنها تعرف الحقيقة في ذلك ..

وكان كل ما يستند اليه في هذا الشك ، هو علمه بأنها كذبت إذ قالت في جلسة التحقيق أن ايمـا كانت مرحة تتطلع إلى عودة زوجها في لهفة ..

كذلك تلك الاشارة الخفية وهي تأمر بأن تجيب نفياً عندما سألها المحقق هل كان مع والدتها احد قبل مصرعها ، فذلك يدل على أن شخصاً ما كان مع ايما ..

فمن هو ؟

وكان قد علم الكثير من كلاي ، وهو رجـل لا شك في أمانته وفرط

وفائه وحبه لايما !

ولكن الى اي حد يمكن التعويل على ما قاله في كات هوارد ؟

ان هذه الأقاويل رغم كل شيء ، لا تعدو أن تكون من ثرثرة الخدم ، كما قال المحقق ان كلاي يمقتها .

ومن ناحية أخرى ، فقد كان كلاي يعيش في المنزل وعرف كات أعواماً طويلة ..

وكانت رنة الاقتناع في صوته عندما قال :

« سوف أقول لك شيئاً واحداً ، هو أنها خليقة بأن تفعل ذلك » .

قد تركت في نفس مايكل أثراً عميقاً ..

واخـذ ينظر اليها وهي تجلس أمامه .. ويتأمل ذلك الوجه البيضاوي الغض وقد احاطت به هالة من شعرها الفاحم الهفاف تحت قبعة صغيرة انيقة ، وذلك الفم الدقيق الأرجواني ، وتلك اليدين البضتين ، وقد صقلت أظافرهما وطليت بما يشبه لون الدماء ، وهما تمسكان بقدح الشمبانيا ، ترى هل هي حقاً خليقة بأن تقتل زوجة اخيها ؟

وكانت عيناها الصغيرتان تبدو فيهما دلائل الانتصار وهي تبتسم له عبر المائدة فتقول :

– اني لا استطيع ان اصف لك سروري عندمـــا رأيت الجواد الذي راهنت عليه يفوز بمعجزة ، فقد كنت في حفلة السباق اليوم ، وهكذا ربحت مائتين من الجنيهات الجميلة ؟

وكذلك من الملاحظ ان شؤون المال كثيراً ما كانت تأتي في احاديثها ، وقد قالت له :

– انني دائماً متوترة الاعصاب ضيقة الصدر ، اذ تآمر اهل زوجي وأهلي على أن يتركوني دائماً بلا نقود ..

– ولكن زوجك نفسه ؟

فقالت ساخرة :

– آه ! هو ؟ لقد كانت المجاملة الرقيقة الوحيدة التي قام بها نحوي هي أنه مات شاباً .

* * *

وكان مايكل قد التقى بكثيرات من النساء مثيلاتهـــا .. من اولئك اللواتي امتلأت نفوسهن بالأثرة وحب الذات ، واللواتي تستر أساليبهن المهذبة وثيابهن الثمينة ، تلك النوازع الداخلية التي تدفع بهن إلى الحصول على كل ما يردنه لأنفسهن ..

وهكذا كانت كات ..

فالشخص الوحيد الذي يهم كات هوارد هي كات هوارد ..

فهي تحب المتعة لنفسها ، وتحب الفراء والحلى ، وكل مـــا تستطيع النقود أن توفره من مظاهر البذخ والرفاهية .

وهي لا تتورع عن استخدام أية وسيلة في سبيل الحصول عليها ، وطالما تحدثت عن رغبتها في امتلاك مبالغ كبيرة من المال : « حتى أجعل من حياتي شيئاً ذا قيمة »

ولم يكتشف قطعاً الذي كانت تريد أن تجعله من حياتها ..

ومع ذلك فكانت تقضي الساعات في مناقشة ما تفعله إذا كانت تملك مليونـــاً ..

وكان يصغي اليها في صبر وجلد ، وقد ثارت شفقته ، كما كان دائماً حريصاً كل الحرص على أن يطلب لها من الطعام والشراب مـــا ندر وجوده ، فتفيض بالاعجاب بنوعه لا لشيء ، إلا لأنه غالي الثمن .

ولقد ادرك مايكل ، في مرارة بالغة ، مدى السهولة التي يستطيع المرء بها أن ينال نساء مثل كات ..

فيكفي أن تبدي نحوهن اهتماماً يسيراً ، حتى يحسبن ، وقد أعماهن الغرور أنك شغفت بهن حباً ..

ومتى مزجت الطعام والشمبانيـــا اللذين تقدمهما لهن ، بشيء من التملق والمديح .. فلا تلبث أن تراهن تحت قدميك ، متجردات من الثيـاب والحياء معاً ..

أما كات فقد تقبلت ملاطفاته كمظهر طبيعي من مظاهر تقدير محاسنها ومفاتنهـا ..

وإذ وثقت من اعجابه ، فقد راحت تتحدث في غير تحفظ ..

وسرعان ما عرف كل شيء عنها ، عدا تلك الأشياء التي كان يريد حقيقة أن يعرفها ..

كانت تفيض في الحديث عن زوجها ، وعن أسرتها التي لم تكن على وفاق معها – لأنهم كانوا شحيحين ، يضنون عليها بالنقود – وعن مباذل أصدقائها ، ولكنها كانت اقل صراحة فيما يختص بعلاقتها بإيما .

وقد اغتبط لذلك واطمأن له ..

فلم يكن التحفظ من صفات كات البارزة ، ولن تتحرز عن أن تفيض الحديث عن زوج أخيها الميتة إذا ما شجعها على ذلك .

ولقد شجعها حقاً ..

مرة بعد مرة ، كان يدور بالحديث حول إيما ..

ولكن خاب أمله ، فقد كان دائمـاً يرى نظرة جامدة متحفظة تلوح في عينيها ..

وقد تكون كات منتشية تفيض بحيويتها الدافقة وحديثها الطلي ، ولا تلبث أن تهز كتفها في غير اهتمام ..

ثم تجيب إجابة وجيزة وتتحول بالحديث إلى وجهة أخرى بعد أن تسيطر على نفسها من جديد .

وكان مايكل جويس يقضي الليالي ساهراً مسهداً يذرع حجرته ذهاباً وجيئة كوحش حبيس ، وهو يفكر في إيما ..

ايما التي غدت الآن نسيا منسيا إلا عنده هو ..

وكان لا يفتأ يستعرض الأمسية التي قضاها للتو مع كات ، ويعيد التأمل في اللمحات المختلفة التي بدت في أساريرها ، وفي نبرات صوتها كلما كان يجرها إلى الحديث عن ايما ..

لقد كان الأثر في كل مرة واحداً لا يتغير ..

ما من لمحة تنم عن العاطفة أو الأسى .. وإنما دائما ذلك الجمود وعدم الاكتراث .

ومع ذلك – ودون سند معقول – بدأ مايكل جويس يعتبر كات هوارد مسؤولة عن موت المرأة الوحيدة التي احبها واحترمها .

فإذا تأيدت شكوكه هذه نهائيا ، فإنه لن يتورع عن قتلها ..

بل شد ما يسره أن يقتلهـــا ، فقد كانت في نظره حيوانا ضئيلاً شديد الخطورة لا قيمة له في الحياة ..

واذا ثبت لديه انها هي التي دمرت إيما فسوف يدمرهـــا تدميراً ، ويقضي عليها كا يقضي على اي حيوان خطر ..

ولسوف تخبره كات هوارد نفسها يوما ما بما يريد ان يتحقق منه !

* * *

وقد صح حدسه ..

وقالت كات شيئا ذا اهمية بالغة ..

فعندما التقيا في الليلة التالية ، طلبت كات كأسين من الشراب القوي ، قائلة ان اعصابها مرهقة ببعض متاعب عائلية ..

اهمها العناية بآن ..

وذكرت انها تلقت خطابا من اخيها فيليب ، زوج ايما ووالد آن ..

فأبدى مايكل قلقه على فيليب قائلا :

- انني ارثي لحاله ، فإن الأمر شاق عليه ، واعتقد ان ايما كانت زوجة فاضلة وام رؤوم .

ثم انتظر ليسمع ما تقوله كات رداً على ذلك ، لتقفل به الموضوع كعادتها ..

ولكنها لم تفعل ، بل نظرت اليه من فوق حافة القدح ، في خبث وتسلية ، قائلة :

- لقد كان لايما عشيق ..

فارتعد مايكل ..

وفارقه هدوءه ..

ثم قال معترضا :

- آه ، هذا غير صحيح ..

وظلت كات ترمقه في خبث قائلة :

- ارى ان ذلك يدهشك ؟

فلم تفتها كثرة ملاحظاته العابرة عن إيما ..

ولم تكن تطيق ان يعتقد اي رجل الطهارة والفضيلة في اية امرأة أخرى ، حتى ولو كانت في العالم الآخر ..

ولذلك .. لم تستطع مقاومة هذه الفرصة السانحة للتقليل من شأن ايما ..

وتعمد مايكل ان يهز كتفيه في غير مبالاة وهو يسألها :

– وكيف علمت ؟

فعادت لمحة التحفظ إلى عينيها عندما أجابت :

– لقد اخبرتني بذلك ..

وظل مايكل جالساً في صمت مطبق برهة طويلة ، لقد عادت كات إلى الكذب ثانية ..

فلم يكن لايما عشيق قط ، بالمعنى الضيق الذي تعنيه كات بهذه الكلمة ، كما أنه ليس من المعقول البتة أن تخبرهـا ايما بشيء عن حياتها العاطفيـة الخاصة ..

وأخيراً قال في بطء :

– وهل أخبرتك عمن يكون الرجل ؟

فجرعت كأسها ، ثم تناولت اصبع الطلاء الأحمر من حقيبتهـا وراحت تصلح من زينة شفتيها قبل أن تجيب :

– كلا .. واحسب أنه لا ينبغي أن أخوض في سيرتها بعد أن قضت نحبها ، ولكن لعلك علمت الآن لماذا قلت انه من الخير (لآن) أن تكون بعيدة عنها !

– واين ستقيم آن في المستقبل ؟

– معي ..

فهتف في اشمئزاز :

– معك ؟

وكأنما أحست بما في لهجته لها ، فسألته :

– ما الذي يضايقك في ذلك ؟

فاستعاد اتزانه ومرحه وقال :

– لست استطيع ان اتصورك معنية بتربية الأطفال !

وكانت ابتسامته تدل على أنـه يرى كات من المرح وحب اللهو بحيث لا يمكن أن ترتبط بحياة منزلية وادعة .

وقد فهمت ما يرمي اليه فقالت :

– لا تكن واثقاً من ذلك تماماً ، فإني ملأى بغرائز الأمومة الكامنة .

– هل انت كذلك حقاً ؟

فتضاحكا في غير تكلف ، ثم قالت :

– كلا . .

واستطردت :

– سوف ارسلها إلى مدرسة داخلية بحيث لن تضايقني إلا في عطلة الصيف . .

– أي بعد بضعة شهور عديدة . .

– لا ريب انك قرأت ما يدور بفكري . .

واقبل الساقي بقدح آخر من الكوكتيل وضعه أمامها . .

بينما قال مايكل :

– هل وافق والد آن على هذا الترتيب ؟

– آه . . نعم . . لقد ابرق لي لأعد لها منزلاً ؟

ففكرت كات في أن مايكل يبدو الليلة ثقيلا على عادته . .

وقالت :

– لا تكن كثير التدقيق .. لقد فعلت ذلك لارضاء فيليب فحسب ، إذ ان (آن) أثارت الكثير من المتاعب في الاقامة مع والدي ، وأراد فيليب أن تعيش في كنف شخص أصغر من ذلك ، فلم يبق سواي . .

وانحنت في سخرية . .

على حين قال مايكل :

– لقد فهمت ، ومتى ترحل إلى المدرسة ؟

- يوم الاثنين القادم ، ولكني أرسلت في احضارها إلى المدينة غداً لتعرض اسنانها على الطبيب قبل أن ترحل ..

فقال في تخابث :

- لست أدري لماذا ترعجين نفسك إلى هذا الحد في سبيلها ؟

فغابت السخرية عن فم كات ، وقالت :

- اوه ! ان فيليب يمنحني مبلغا كبيراً للعناية بها .. وماذا افعل ؟ اننا جميعا ينبغي لنا ان نعيش ، ولكن اليس من الأفضل ان نمضي لتناول العشاء الآن ؟

فغمغم يقول :

- إن آراءك تدعو إلى الاعجاب .

ولكنه كف عن طرق الموضوع بعد هذا الحد ، إذ بدا التحفظ على كات ثانية ..

وغدا من المحتم عليه أن يمضي في سبيله حاذراً حريصا ، وسوف يكون للعشاء ، والشمبانيا ، والعبارات المعسولة التي يصبها في اذنيها ، مـــا يكفل عودتها إلى مرحها العادي ..

وكان يفعل ذلك مرغما ..

يا لله ! كم يمقت هذا الصوت الناعم الأجوف ، وذلك القناع الرقيق الوضاء الذي يكسو وجهها .

ولم تجد كات غباراً في مسلكه أثناء العشاء ..

كان مرحا ، مثالاً للرجل المهذب ..

ولقد رأتهما صديقتها جيني ديفا في المطعم معـاً ، فقالت لها في اليوم التالي :

(إن الرجل قد غدا عبداً لك يا عزيزتي) ..

وهو ما ينبغي ان يكون طبعاً ..

فلما ضغط مايكل على يدها مودعاً أمام فندق اركاديا في ساعة متأخرة من تلك الليلة ، قال لها :

– في أية ساعة تذهب آن إلى طبيب الأسنان غداً ؟

فسألته في دهشة بالغة :

– لماذا تهتم بذلك إلى هذا الحد ؟

– لقد خطر لي أنك ستكونين في فسحة من الوقت ، أثناء زيارتها للطبيب ..

فزحف الابتسام إلى عينيها في بطء وهي تقول :

– آه .. وما شأن ذلك ؟

– إذا كنت خلواً من العمل ساعتئذ فيمكن أن نلتقي ..

– إنها فكرة طيبة ..

ثم وافقت على أن تقابله في (سافوى) لتناول الشاي في الساعة الرابعة بعد ظهر اليوم التالي ..

الفصل التاسع

كان مايكل عازماً على أن يرى آن وحدها ..

على حين كانت كات لا تشك في شيء عندما ضرب لهـا هذا الموعد لتناول الشاي !

هذا الموعد الذي لم يكن في نيته أن يلبيه قط ..

بل انتظر في المنزل طوال فترة بعد الظهر حتى سمع رنين جرس البـاب الخارجي ..

ثم سمع صوت آن في الردهة تقول للوصيفة :

- لقد أخبرتني عمتي بأن احضر لانتظارها هنـا عندمـا انتهي من زيارة طبيب الأسنان ، لأنها ستتناول الشاي في مكان آخر ، وستحضر لأخذي من هنا بعد ذلك ..

وسمع مايكل الوصيفة تقود آن إلى إحدى حجرات الاستقبال ، وتغلق الباب وهي تنصرف .

فأسرع يهبط الدرج ويفتح باب الحجرة قائلاً :

- مرحباً بك يا آن ..

وكانت الفتاة النحيلة ، الطويلة القامة تبدو أنيقة في ثيـاب المدرسة الرمادية ، وعلى ذراعها شارة الحداد السوداء ..

وكانت قد القت بقبعتهـا على المنضدة ومضت تقلب صفحـات إحدى المجلات المصورة

فاستدارت على عجل ، في حركة لا تخلو من الخوف والتوجس ..

وعندئذ لاحظ مايكل مدى ما أصاب وجهها الصغير من نحول وشحوب ، وبدا عليها الاطمئنان عندما تبينت من يكون ، وارتسمت على فمها ابتسامة شاحبة وهي تهتف :

– آه .. كيف حالك ؟

– هل تعبت كثيراً عند طبيب الأسنان ؟

– ليس كثيراً ، وقد طلبت مني عمتي كات أن انتظرهـا هنا .. ألا يضايقك ذلك ؟

فابتسم في وجهها وقال :

– لقد كنت انتظرك ، هلا جلست يا آن ؟

وانفطر قلبه ، إذ تبين التغير الذي أصابها منذ رآها لآخر مرة ..

فلم تكن آن ، نفس الطفلة التي يعهدهـا وهو يدرك هول الصدمة التي أصابتها بموت امها .

ولكن التغيير كان أعمق من ذلك ..

كانت الفتاة قد فقدت ثقتها بنفسها ، وغدت تبدو وجلة خائفة تجفل لأقل حركة ..

وكانت لا تفتأ تتلفت حواليها ، كأنما لا تثق بأي شيء ، وترتاب في كل شيء ..

وهو إذ يذكر تلك الطفلة الصريحة الثابتة الجنان ، الرابطة الجأش ، التي عهدها مع إيما ، فإنما ليضيف حلقة جديدة إلى سلسلة التهم التي سيحاسب كات عليها حساباً عسيراً ، يوماً من الأيام ..

لقد كان مـا أصاب الطفلة نتيجة لغرائز الأمومة المكبوتة في

نفس كات !

وابتسم لها مايكل في جهد لينال ثقتها ..

وقال في ابتهاج :

– لقد فكرت في أن الوقت قد حان لنلتقي ثانية ، ونتبادل بعض الحديث ..

وكانت لا تزال متشككة إذ اجابت :

– عن اي شيء ؟

– عنك . هل انت راضية عن الذهاب إلى مدرسة داخلية ؟

فأجابت في اقتضاب :

– لست أبالي بذلك ؟

فاشعل لفافة وراح يدخن لحظة ، قبل أن يسألها عرضاً :

– أتحبين عمتك كات ؟

فاهتزت أهدابها في اضطراب ..

بينما كانت تفرك يديها وهي تجيب :

– نعم ..

– هل انت على يقين من ذلك ؟

– نعم ..

وتأثرت مشاعره بملامح الشقاء التي تبدو في وجهها ، وأدرك ان نضالاً عنيفاً يعتمل في قرارة نفسها ..

فتابع حديثه في رقة بالغة :

– ألا تثقين بي يا آن ؟

فلم تستطع مواجهة نظراته ، وحولت انظارها إلى الباب الموصد ، فظلت تنظر اليه طويلاً كأنما تتوق إلى الفرار ..

حتى اذا ما تبينت تعذر ذلك ، عادت بأنظارها اليه وهي تتمتم في

صعوبة :
- بلى !
فضحك قائلا :
- ولكن ليس كثيراً ؟
- لست ادري لماذا تلقي على هذه الأسئلة كلها ..
- لأنني أريد ان اساعدك يا آن .. وليس ذلك في وسعي مـــا لم تثقي بي ..
فأطبقت شفتيها في عناد بعد ان قالت :
- ألم اقل لك انني اثق بك ؟
وكان صبوراً معها ..
فمضى يقول :
- لقد وثقت بي يوماً من الأيام يا آن ، في امر بالغ الأهمية ..
- ماذا كان ذلك ؟
- حياتك يا آن .. هل تذكرين ذلك ؟
وللمرة الأولى واجهته بعينيها الزرقاوين ..
فأثلج صدره ، إذ رأى الدماء تعود إلى وجنتيها - وشبح ابتسامتـها القديمة يتسلل إلى شفتيها وهي تغمغم :
- نعم ..
- حسناً .. لماذا قلت انه لم يكن مع والدتك أحد عندما رأيتها آخر مرة ؟
فأجفلت الفتاة لهذه المفاجأة ..
وتصلب وجهها !
ثم قالت في تحد :
- لأنه لم يكن هناك احد ..

ـ ولكن هذا غير صحيح .. اليس كذلك ؟
فارتعدت وصاحت في صوت متهدج أشبه بالعويل :
ـ آه ! انني لا أدري ما الذي تريد ان اقوله .
ـ انني اريد فقط أن تصارحيني بالحقيقـــة ، حتى يتسنى لى أن أساعدك .. لقد كانت عمتك كات مع والدتك ، اليس كذلك ؟ أريد أن تخبريني بكل شيء ..
فاستدارت آن في عجلة واسندت رأسها إلى المقعد ، وانثنت تجفف الدمع بفضل ردائها المدرسي ..
وكانت تغمغم في ضراعة :
ـ أوه ! دعني .. أرجوك أن تدعني ..
فمضى مايكل نحوها وانحنى فوقها وهو يقول :
ـ ينبغي أن تدعيني أساعدك يا آن .. ما الذي جرى بين كات ووالدتك قبل الحادث ؟
وكان ظهرها يعلو ويهبط في زفرات حارة متتالية وهي تجيب :
ـ إنه لم يكن حادثاً .. لقد كان كما لو كنت قد دفعتهـــا بيدي دفعـــاً ..
فصاح مشدوهاً :
ـ أنت ؟
وكانت تبكي في مرارة ، وتقول :
ـ كان ذلك كله نتيجة خطئي ..
ـ وكيف يمكن أن يكون كذلك ؟
ـ لقد كان كذلك ، بل لقد أدركت الآن أنه كذلك ، فقد انحزت ضد والدتي ، ولست أبالي ما يحدث لي بعد الآن ..
فأحاطهـــا بذراعه ، وأضجعها فوق المقعد ، وهو يقول لهـــا في

حنان ودعة :

– ما الذي فعلته يا آن ؟ هيا .. ينبغي أن تثقي بي وتخبريني ..

فتعلقت به الفتاة بغتة ..

وتشبثت به وهي ترتجف قائلة :

– اني لا أستطيع . لا أستطيع البتة ..

وكان صوتها خلواً من التحدي والعناد الآن ، وكانت ترتجف هلعـــاً من خوف حقيقي عنيف ..

فقال الطبيب :

– بل ينبغي ..

فأجابت آن :

– لا أستطيع ، لقد جعلتني أعدها بألا أقول شيئاً ، وقـــالت انهم يرسلونني إلى اصلاحية البنات إذا علموا بالحقيقة ..

فصاح في حدة لفرط الغضب :

– من التي قالت ذلك ؟ عمتك كات ؟

فأومأت برأسها ..

وعندئذ أردف قائلاً :

– لا حق لها في أن تقول مثل هذه الأشياء .. انها غير صحيحة يا آن .. غير صحيحة البتة !

وكان وجهه يفيض بالحنق والانفعال ..

ولكنه كان يخاطب الفتاة في هدوء حتى يوحي اليها بالثقة به ..

فقالت :

– لو لم أذهب لرؤية والدتي لمـــا حدث شيء البتة .. فقد كان الأمر مزحة ، كما قالت العمة كات ، إلا انني صدقته وانحزت ضد والدتي .. و .. و

وكانت الدموع تنساب فوق وجهها في غزارة ..
فقال مايكل :
ــ ما الذي حدث يا آن ؟ خبريني بكل شيء !
فترددت الفتاة ، والقت عليه نظرة حيرى .
ثم ند عن صدرها تنهد عميق قبل أن تبدأ حديثها في سرعة ، وهي تتمثر فيه ..
كانت مقاومتها قد تحطمت وشعرت بارتياح عندما ألفت نفسهـا تجد الفرصة السانحة للتخفيف من عبء الكتمان على صدرها ، وتقص عليه أحداث تلك الليلة المروعة :
ــ كنت العب في حجرتي ، ثم ذهبت إلى والدتي لألقي عليهـا تحية المساء .. وكانت عمتي وقتئذ تغادر حجرة والدتي .. وكانت بادية الحنق والغضب ..
وانتظرتني عند قمة الدرج وذكرت أن لديها شيئاً تريد ان تقوله لي ..
فجلسنا معاً على الأريكة الخشبية بالردهة خارج الحجرة حيث بدأت عمتي الحديث فقالت :
« إن والدتي ووالدي سينفصلان عن بعضهما بالطـلاق ، وإن ذلك كله بسبب خطأ والدتي .. وقالت ان والدتي تحب رجلا آخر ، وانها ستهجرنا ، أبي وأنا ..
ومن خلال عبارات آن القصيرة ، رأى مايكل جويس امـامه صورة واضحة لما حدث ..
صورة كات وهي تتحدث إلى الطفلة في عجلة ، وتصب في أذنيهـا الواعيتين ، تلك الأكاذيب القاسية ..
ولا ريب ان إيما قد فتحت باب حجرتها في تلك اللحظة ورأت الاثنتين جالستين معاً !

إذ مضت آن قائلة :

– ثم قالت عمتي انني سأضطر للذهاب إلى المحكمة والشهادة بأن والدتي كانت سيئة الخلق .. وبعد ذلك قالت شيئاً فظيعاً عن والدتي ..

وعندئذ طلبت اليها والدتي – وكانت قد سمعت ما قالته العمة كات عنها ، ان تنصرف وان تكف عن هذه الأقوال .. ثم امرتني والدتي أن أمضي معها إلى حجرتها ، ولست أدري لماذا سلكت هذا المسلك ، ولكن الذي حدث هو انني رفضت الذهاب معها ..

وغدا في وسع مايكل ان يرى الصورة أشد ما تكون جلاء ..

(إيما) في عنفوان غضبها ، لأول مرة في حياتها وهي تطرد كات خارج المنزل .

ثم تحاول ان تمسك بيد آن ، لتقودها بعيداً عن سماع هذه الأقوال البذيئة ..

فقد كان الأمر في هدوء حتى يوحي اليها بالثقة به ..

على حين كانت الطفلة وجلة مشدوهة ، وقد افزعها ما سمعته .

واذهلها مرأى والدتها وقد استبد بها الغضب بمثل ما لم ترها عليه قط من قبل ، وهي في مكانها متعلقة بكات ، متحولة عن امها ، إلى تلك العمة ..

وتابعت الطفلة :

– وكانت والدتي تلوح شديدة الغضب ، فقد قالت عمتي كات أشياء فظيعة عنها ، وكنت ارتعد فزعاً فوقفت بجانب عمتي ، وعندئذ بدأت والدتي تبكي في نشيج مرتفع ، وأسرعت عائدة إلى حجرتها حيث صفقت بابها في عنف ، فلم أرها بعد ذلك قط .

وأعولت الفتاة وعلا نحيبها ، وهي تستطرد :

– وكان ذلك كله بخطئي ، إذ صدقت ما قالته عمتي ..

وهكذا تبين لمايكل الحقيقة أخيراً ..

ولكن على رغم علمه الآن بخلق كات ، فإنه ظل في دهشة من اسفافها وانحراف عقليتها وقسوة قلبها إلى هذا الحد ..

فقد اكتشفت ان إيما تقابل أحد الرجال ، فعلت ذلك بمـــا يتفق مع طبيعتها هي ..

وانتهزت الفرصة للحصول على بعض المال ..

وكانت تحاول ابتزاز المال من إيما بالتهديد في حجرتها ، فرفضت إيمـا أن تصغي اليها !

ولكن كات بخبثها ونذالتها استخدمت السلاح الذي تعرف أنه يصيب إيما بأشد الألم ..

فراحت تسكب أكاذيبها في أذني الطفلة حتى سممت افكارها ، وجعلتها تنفر من امها !

وبذلك قتلت الحب والثقة المتبادلتين بينهما ..

فلما رأت ايما إشارة ان ، وتحولها عنها في نفور ، وانحيازها إلى جـــانب عمتها ، شعرت بأنها فقدت ابنتها إلى غير رجعة ، فعادت إلى حجرتها كسيرة القلب ، محطمة الفؤاد ..

وبعد ؟

وسأل ان :

– ما الذي حدث بعد ذلك ؟

– قالت والدتي ان عمتي قد اتلفت كل ما استطـــاعت اتلافه ، ولكنني كنت أنا المذنبة حقاً ، لأني صدقتها .

فقاطعها في عجلة :

– ولكن ماذا حدث بعد ذلك ؟

فبذلت آن جهداً عظيماً لتستعيد سكونها ، ولتمنع الارتعـــاد عن

شفتيها الشاحبتين ..

وكانت تهم بالكلام عندما فتح الباب بغتة دفعة واحدة ..

وكانت كات تدخل الحجرة ..

فأسرعت آن تنزلق من مقعدها ، وتهرع إلى الركن الآخر من الحجرة ، حيث تتململ في قلق وهي تحاول ان تختفي عن العيان ..

ولكن كات لم تضع لحظة واحدة في النظر اليها ، وإنما مضت نحو مايكل رأساً وقالت :

– ما الذي أصابك بحق السماء ؟

ولو لم تكن قد أعماها الانفعال لتبينت في أساريره ذلك الحقد البالغ وهو يجيب ببرود :

– يؤسفني انني لم أستطع الحضور ..

– هكذا أرى .. ولكن أين كنت ؟

– لقد احتجزني عمل هام .

– حسناً .. ألم يكن في وسعك أن تتصل بي تليفونيـــاً ؟ لقد ظللت انتظرك ساعة كاملة .

واشتد حنقها إذ رأته يحدق النظر اليهـــا في برود ونفور عجيبين ، فصاحت مستطردة :

– لست أدري من تحسب نفسك ، انني لم اعتـد دفع ثمن الشاي الذي أتناوله من قبل ..

وعندئذ جرى على شفتيه طيف ابتسامة ..

فهي في دهشتها البالغة ، وحنقها العظيم لتركها تنتظر عبثاً بواسطة أشد المعجبين بها حماسة ، لم تلس الحقيقة الدامغة ، وهي أنها قد خسرت في ذلك بعض النقود ..

ومن ثم مد يده فأخرج حافظة نقوده ..

وفي قحة غير مألوفة أو معهودة ، مد يده نحوها بورقة مالية وهو يقول :

– إن ذالك لما يسهل تدبيره ..

وظل برهة يعتقد أنها سوف تصفعه على وجهه ، إذ كانت عيناها الضيقتان الخبيثتان تنفثان سماً ناقعاً ، وهي تحدجه بنظرات نارية ..

ولكن شيئاً في أساريره الصارمة أوقفها ، فاكتفت بأن تهتف من فرط الغضب :

– اه ! هكذا ؟

ثم استدارت محنقة وهتفت :

– هيا بنا يا ابن !

ولكزت الطفلة في ظهرها بقوة وهي تدفعها أمامها خارج الحجرة ..

الفصل العاشر

لم يكن علم مايكل بالحقيقة من أمر موت إيما ليبعث الراحة إلى نفسه وقلبه ..

فظلت قصة ان الأليمة تدوي في اذنيه ، كما راحت تعذب ذكرى وجهها وقد ارتسمت عليه علائم الذعر والهلع ، بل ذكرى وجهيهما ، هي وإيما ، يوم ان كان يلوح عليهما البشر والدعة ، قبل ان تحمل كات هوارد حملها ..

ولقد ماتت إيما الآن ..

وغدت طفلتها التي كانت تحبها وضحت في سبيلها بسعادتها (وسعادته) مخلوقة صغيرة منطوية على نفسها ، منكودة الطالع، دون حماية أو سند ، تسير في طريقها نحو الجنون او انهيار الأعصاب ..

أما كات ..

كات التي دمرتهما كليهما .. فإنها تمضي في طريقها وادعة ناعمة البال ، لا يضايقها أحد ، ولا يقلقها أسف او رثاء ..

بل لقد خرجت من هذه الكارثة ، التي كانت سبباً فيها رابحة كاسبة ، فهناك ذلك المرتب الذي خصصه لها أخوها — زوج إيما — للعناية بأمر ان والانفاق عليها ..

بل ليسمع الآن عبارة كات الفلسفية التقليدية :

(ينبغي لنا ان نعيش) ..

وتصلب وجه مايكل .. فإن إيما - مع ذلك - قد حرمت حق العيش ..

وامتدت يداه في غير وعي إلى المعزف ..

فانطلق بعض ما يعتمل في نفسه من حقد مرير وغضب متأجج ، انغاماً كقصف الرعد حيناً ، وكالأنين حيناً اخر ..

ولكن ، مهما كانت محاولته ، فإنه لم يستطع أن يوصد عقله دون تلك الفكرة التي راحت تطرق تفكيره طرقاً عنيفاً متتالياً .

كان يفكر في أن يقتل كات هوارد ..

لقد أبعدت آن عن أمها بتشويه الحقائق في نذالة بالغة !

وبهذا السلاح الفتاك ..

سلاح الغدر والوقيعة .

قتلت إيما ، كما لو أنها قد فتكت بها بيديها ..

بل انه ليس واثقاً كل الثقة من أنها لم تستخدم يديها حقاً ، ومع ذلك فإن التفاصيل لا تهمه الآن ، وكفاه ما يعرفه !

وهو يود من صميم فؤاده ، أن تظل كات بعيداً عن طريقه ، من أجل سلامتها وأمنها !

فلو راها ، لما استطاع أن يبقي يديه بعيداً عنها ..

إن مسز هوارد لم تشعر بشيء من الألم حتى الآن ..

ولكنها عندما تقع بين يديه ، ويظل يضغط على عنقها ليستل الحياة منها فسوف تشعر وتحس بما قدمت يداها ..

سوف يجعلها تذوق الألم كؤوساً مترعة ، كما أذاقته لايما ..

وعندئذ أخذته رعدة قوية ..

فما ينبغي أن يفكر في شيء كهذا ..

وراح يعزف أنشودة إيما وان الخليفة :
(سيدتي .. هل لك أن تسيري) !

ولكن وجه كات بدا أمامه منعكساً على صفحة المعزف السوداء المصقولة يبتسم في وجهه ابتسامة أقرب إلى السخرية منها إلى التلطف ..
فمضى يعزف في حماس واستغراق ، ليبعد شبحها عن تفكيره ، وراح يتمنى في يأس وأسى ألا يراها قط بعد الآن ..
لـــعله ينجح في القضاء على نزعة الانتقام الجنونية التي تخالجه في قوة وحيلة ..

وسوف يفعل الزمن فعله ..
فينسى كات ..
ولا يذكر بعدئذ غير إيما ..
ايما الطاهرة الطيبة !

* * *

ونفذ إلى سمعه ، خلال الموسيقى ، رنين جرس يدوي في أرجاء المنزل .
وكان يبدو انه يدق منذ برهة طويلة ..
فتوقف عن العزف .. وكان السكون شاملاً في المنزل ، إذ كان الخدم قد أووا إلى فراشهم .

وسمع رنين الجرس ثانية ..
وكان جرس الباب الخارجي .

فأوحت اليه غريزة المهنة بما عساه أن يكون .. لا ريب ان حادثاً قـد وقع ، وان أحداً في حاجة إلى طبيب فمضى يهبط الدرج على عجل ويفتح

الباب الخارجي ..

وإذا بكات واقفة أمامه ..

وظل برهة لا يكاد يصدق ناظريه ، بينا تحول في غير وعي يسد عليها سبيل الدخول .

فسمعها تقول في انفاس لاهثة :

- أرجو أن تدعني أدخل يا مايكل ، إني أود أن أتحدث اليك ..

فقال في برود :

- إن الوقت متأخر الآن...

فقالت مسز هوارد :

- لن يستغرق ذلك وقتاً طويلاً ..

ثم شقت طريقها إلى الردهة !

فقال لها :

- ما الذي تريدين قوله ؟

وجعلها صوته تلتفت نحوه في عجلة ، قبل أن تقول :

- ولكننا لا نستطيع أن نتحدث هنا ..

وأسرعت تجتاز الردهة وترتقي الدرج ..

وإذ كان يتبعها ، استقرت نظراته على عنقها الناصع البياض تحت جدائلها السوداء الفاحمة !

يا لله ، ما أسهل أن ينزع الحياة منها للتو واللحظة .

بل ان يديه لتتقلصان ، وأصابعه لتنثني كأنما تريد أن تطبق على هذا العنق الختال !

وعندئذ ، اطبق كلتا يديه على سياج الدرج ، وهو يرتجف من هول من هول الرغبة التي استبدت به ، ومن الجهد الذي يبذله لكبت هذه الرغبة وسحقها

وكانت هوارد تخلع معطف الفراء الذي ترتديه ، عندما ولج قـــاعة الاستقبال ..

فتحولت نحوه في الحـــال ، ورفعت اليه وجهها في ضراعة وهي تقول له :

– لقد أدركت اني كنت حمقاء إذ غضبت منك بعد الظهر ، فلا ريب أنك كنت منكباً على العمل ، ولم تكن لك حيلة في الأمر ..

وانتظرت لحظة وهي تتوقع أن ترى ابتسامته وتسمع اعتذاره ، ولكنها بدلاً من ذلك سمعته يقول في خشونة :

– هل هذا ما قدمت خصيصاً لقوله ؟

وفي وحشية غريبة أردف :

– حسناً . لقد قلته الآن ، طابت ليلتك ..

فقالت كات لنفسها :

– يا إلهي ! إنه منحرف المزاج الليلة ..

ومع ذلك ، فإن هذه الحالة التي تجمل مايكل صعب المنال ، أثارت في نفسها رغبة الانتصار والغزو .

فاستطردت تقول في لين :

– ألا زلت غاضباً مني ؟ أرجو ألا تكون كذلك .

ثم مدت اليه يدها البضة ..

ثم اردفت :

– دعنا ننسى كل ما حدث ونعود أصدقاء ثانية !

فأولاها ظهره ..

ولكن ذلك لم يفت من عضدها ، ورأت من البراعة ألا تدع لكبريائها سبيلاً الآن ..

وغمغم يقول :

– اني لا أريد أن اراك بعد ذلك يا كات !

يا الله !.

ألا تفهم الحقيقة فتنصرف وتدعه قبل أن يفوت الأوان ؟

وكانت نبرات صوتها متهدجة وهي تقول معاتبة :

– أواه يا مايكل ! من أجل شيء تافه كهذا ؟

ولم يكن ينظر اليها ..

ومع ذلك ، فقد أدرك انها تمثل في براعة ، فقال :

– كلا .. فليس لذلك شأن بالأمر ..

– ولكن ليس ثمة مـــا يدعو إلى معاقبتنا كلينا لا لشيء سوى انك غاضب مني ..

فأجاب الطبيب :

– هل ترين انني أعاقب كلينا ؟

فتحيرت كات .. وبعثت النظرة الحادة الثاقبة التي حدجهـــا بهـــا ، الرعدة في اوصالها ..

كان وجهه صارماً شديد الشحوب ، وكان بدنه يرتجف بشكل على نحو لم تره من قبل ..

ترى ، ماذا دهاه بحق السماء ؟

وأمعنت التفكير برهة ، وإذا بضوء الفهم ينبثق أمـــام ناظريهـــا ، فقالت في زهو :

– مايكل ! اراك تريد ان تقطع صلتك بي لأنك رجل متزوج ؟

فلما فهم غرضها ، كاد ينفجر ضاحكا ..

يا الله ما أشد غباءها ؟

إن زهوها الأعمى لا حد له !

وتابعت حديثها :

– قد يكون ذلك منتهى الشهـامة ، ولكن أود ان تعرف اني لا أبالي بمثل هذه الاعتبارات !

ودنت منه وازدادت به التصاقاً حتى كادت رأسها تلامس كتفه ، بينما وضعت يدها فوق ذراعه وهي تستطرد :

– انني لا أبالي بما يقول الناس او يظنون ..

وتصلب بدنه لملامستها ..

وما لبث أن استدار وواجهها .

كانت شديدة الالتصاق به ، بحيث لا يمكنه أن يبتعد عنها ، فقد كانت يداها متعلقتين بسترته وهي تهمس :

– مابكل ! ألا تدرك ما احاول ان اخـبرك به ؟ اني اريد أن أبقى معك ، مهما كانت الظروف ..

وظل برهة طويلة يتفرس فيها دارساً متفحصاً ..

فرأى شفتيها الأرجوانيتين تنفرجـــان ، كأنما تدعوانه في رغبة واشتهاء ..

كما رأى عينيها تتألقان تحت أهدابها الطويلة السوداء ..

وسرى الاشمئزاز في بدنه ..

لكنه قال :

– أتريدين ذلك حقاً يا كات !

فتنهدت في حرارة وهمست :

– دائماً ، وإلى الأبد يا عزيزي ..

فأحس فجأة بارتياح عميق ، لقد استطـاعت كات أن توحي اليـه بالفكرة التي كان ينشدها .

استطاعت أن تجعله يستقر على رأي حاسم ..

وعندئذ فارقه انفعاله ، وعاودته السكينة والهدوء ..

فلسوف يقتلها ..
غير انه سوف يختار الوقت الملائم للفتك بها ..
وعندئذ قال :
ـ سيكون لك ما تشائين يا كات !
ولم تسمعه يخاطبها بمثل هذه الرقة من قبل .
وأحاطت ذراعا كات بعنقه في قوة ..
بينما انحنى فوقها وقبلها ..

الفصل الحادي عشر

راح جويس يدبر في هدوء شامل وسيلة تنفيذ فكرة الانتقـام التي سيطرت على عقله ومشاعره هذه المدة الطويلة ..

وكان شديد العناية بخطته في أدق تفاصيلها ..

وقد رتب الأمر مع مساعده ، بحيث يتولى الاشراف على المستشفى والعناية بالمرضى .. بعد ان اعلن انه سيرحل بعض الوقت في اجـازة قصيرة ..

وقد رحبت مسز هوارد باقتراحه أن يمضيـا معاً بعيداً ، لفترة من الزمن ..

وكانت في تلك الأيام تتفجر حيوية ، فتفيض بالبشر والسرور ، فقد كان ولعها بالأسرار والخفايا الغامضة شريان الحياة بالنسبة لها ، وكان في مايكل شيء غامض يثير انفعالها وفضولها ..

فهي لا تعلم فيم كان يفكر خلال فترات الصمت الطويلة ، عندمـا ينتابه ذلك الوجوم ويظل شارد الفكر ساهماً ..

وشعرت بأنه يكتم شيئاً غريباً غـامضاً ، فعولت على أن تكتشف جلية الأمر ..

أما مايكل فلم يكن يحس بوجودها ، أو يشعر بقربها منه ، كان يراها

كثيراً ، ولكنها لم تعد تضايقه الآن ، فقد انصرف فكره بأكمله إلى الخطة التي كان يدبرها !

وزار المستشفى للمرة الأخيرة ..

وكانت أدواته الطبية ، ومعدات الجراحة الخاصة به قد وضعت حقائبها في سيارته !

فصافح الأطباء والممرضات مودعاً ، بينما كانوا يتمنون له اجازة طيبة ، ولم يبق أمامه سوى عمل واحد قبل أن يبدأ مغامرته مع كات هوارد !

وكان ذلك عملاً عادياً ذا طبيعة دراسية .

* * *

وفي قاعة المحاضرات ، كان صوت المحاضر يخفت شيئاً فشيئاً ، وما لبث أن نظر إلى ساعة معصمه .

ثم دس يديه في جيوبه ، وخطا فوق المنصة خطوة أو اثنين في بطء وتمهل ..

وكان الطلبة يجلسون مشدوهين في سكون ، كأن على رؤوسهم الطير ، فتعلقت أنظارهم به ..

على حين جذبت الفتاة التي حضرت متأخرة نفساً عميقاً وهي تقول في نفسها :

(يا له من محاضر ! ويا له من استاذ بارع في التحليل النفسي ! انه يتكلم عن ثقة ويقين ، ويفيض بالشرح في تحليل نفسية أبطال هذه القضية تحليلاً دقيقاً ، يخيل معه إلى المرء انه يعرفهم معرفة وثيقة) ..

ومضى الحاضر يتابع حديثه وهو يردد عبارته الأخيرة :

ـ كان ذلك عملاً عاديا ذا طبيعة دراسية .. وبينما كان قائماً بأدائه ، راح عقله يستعرض التفاصيل الدقيقـــة لمراحل تنفيذ هذه الجريمة ..

ثم تمهل من جديد ..

فقالت الفتاة في نفسها :

(انه لم يعد طلق اللسان ، كما كان من قبل .. بل انه ليبدو كأنما يبحث عن الألفاظ وينتقيها انتقاء .. اتراه ادركه الكلل بعد أن ظل يتحدث اكثر من ساعة بلا انقطاع ؟)

* * *

وعاد يقول :

ـ فلم يجد في تدبيره ثغرة واحدة ، وكأنما اصطلحت الظروف جميعا على تيسير الأمور له ، فلما فرغ من عمله ، قابلته كات هوارد في المكان الذي تواعدا على اللقاء فيه ..

وكان الظلام قد أرخى سدوله عندما انطلقت بها السيارة تجتاز شوارع لندن ، في طريقها نحو الريف ..

واستغرقت رحلتها نحو ساعة ، كانت هوارد خلالها بادية المرح ، لا تكف عن الكلام كعادتها .. ولم تكن تعرف شيئا عن وجهتها ، حتى بلغا منزل (إيما) !

فقال انه يريد أن يراه ، ما دام معروضا للبيع ، فتقبلت هذا الطلب دون اعتراض ..

وكان يعلم أن أحداً لن يلبي نداء الجرس الذي راح يقرعه طويلا ، فهو يعلم أن كلاي الحارس ، يمضي ليلة الجمعة عند أخته ، ومن ثم فلم يكن مايكل يخشى أن يضايقه بوجوده ..

وكانت النافذة المجاورة للباب الرئيسي لا تزال محطمة الزجاج كما تركها ، فأقنع كات بتسلقها ، حيث تبعته إلى حجرة إيما بالطابق العلوي ..

ومضى إلى نافذة الحجرة ..

وجذب الأستار عنها !

وفي هدوء تام ، أخبرها بأنه هو الرجل الذي كانت إيما تحبه ، وانه يعلم بأنها مسؤولة عن مصرع ايما !

وتملكها الذعر ..

ولكنها كانت عاجزة امامه ..

وعندئذ أخبرها بأنها سوف تموت بنفس الطريقة التي ماتت بها ايما ، ثم أمرها بأن تلقي بنفسها من النافذة ..

بل كأنما شل الفزع حواسها ..

فلم تستطع الحراك ..

فقاومته برهة !

بدأت تصيح مستغيثة ..

ولكن لم يكن ثمة أحد من البشر على بعد ميل من المكان ، ولم يكن ثمة أمل في أن يلبي أحد استغاثتها .

وأخيراً مضت كات إلى حتفها ، وهوت في الفضاء إلى الفناء الحجري أسفل النافذة ، حيث استقرت جثة هامدة محطمة. كما استقرت إيما يومـــاً من الأيام ..

وكان من الانصاف أن تموت كات بالطريقة نفسها ..

وهكذا حق عليها القصاص ..

وأخذت العدالة مجراها !

وتمهل المحاضر قليلاً ، وقد بدا عليه الاعياء فجأة كأنما انهكت القصة الطويلة قواه !

وما لبث أن ختم محاضرته قائلاً :

– وكانت هذه جريمة قتل ارتكبت بواسطة شخص سليم العقليـــة ، ونفذت في براعة دون أن يعتورها نقص أو خطأ ..

ونظر إلى ساعة معصمه ..

ثم أردف :

– أخشى أن اكون قد استغرقت في سرد هذه القصة وقتـاً طويلاً أكثر مما ينبغي .. ولذلك سوف نرجيء المناقشة العامة في موضوعها إلى المرة القادمة !

ثم اولاهم ظهره ..

إيذاناً بالانصراف !

ومضى الى المنضدة فملأ لنفسه قدحاً من الماء .

بينما كان الطلبة يطون مذكراتهم وكتبهم ، ويهمون بمغادرة القاعة وقد وقف معظمهم قريباً من الباب .

وخيم السكون بغتة ، عندما انبعث صوت من مؤخر القاعة يقول للمحاضر :

– هل لي أن أسأل سؤالاً يا سيدي ؟

فتحولت الرؤوس جميعاً نحو ذلك الشاب الجريء ، الذي فاه بهـذه العبارة ..

على حين رشف المحاضر جرعة من الماء ، وعاد إلى مقدمـــة المنصة والقدح في يده ..

فقال :

- نعم ..

فسأل الشاب :

- اظن ان أحداً لم يشك في القاتل قط ؟

فأجاب الحاضر :

- كلا .. فلم يجد البوليس دليلاً أو قرينة تدل على شيء سوى الانتحار ..

ومضى الطالب قائلاً :

- ومع ذلك ، فلا ريب انه كسائر المصابين بجنون العظمة ، قد اخبر أحداً بما فعل ..

فأجفل الحاضر قليلاً ..

وقطب حاجبيه !

ثم قال في حدة :

- معذرة .. فلم أفهم غرضك تماماً ؟

- لعله هو الذي اخبرك بذلك .

فلاحت على شفتي الحاضر ابتسامة خبيثة ، واجاب :

- نعم ، فقد كان أحد مرضاي ..

- في مستشفى للمجانين !

- كلا ، كان سليم العقل تماما ، كان لا يقل سلامة ..

ثم اضاف في شيء من التوكيد :

- عني أنا ..

وساد الصمت برهة كان الطالب خلالها يبدل قدميه في ارتباك ، تحت نظرات الحاضر الثاقبة ، وقد خيل له انه لم يحسن القول ..

واخيراً قال معتذراً :

– ارجو ألا اكون قد اخطأت بسؤالي هذا !

وكان صوت المحاضر طبيعيا وهو يجيب :

– كلا البتة .. بل لقد كان سؤالاً طيبا .

وغادر الطلبة قاعة المحاضرات ..

بينما جمع المحاضر كتبه وقبعته وقفازيه في عجلة ، واسرع إلى سيارته المستقرة في فناء الكلية !

فلم يبق أمامه إلا القليل من الوقت الآن .

فقد كان المحاضر ..

مايكل جويس نفسه ..

وكانت قصته لم تتم بعد فصولها !

الفصل الثاني عشر

غادر مايكل جويس سيارته على مقربة من فندق اركاديا ، وراح يدخن لفافة وهو ينتظر قدوم كات ..

ولا ريب أنها ستتأخر عن الموعد ، كعادتها ..

فإنها تحب أن تدع الرجال طويلاً في انتظارها ، ظناً منها بأن ذلك يزيد من قدرها ومكانتها ..

ولكن لا بأس !

فقد ادخل تأخيرها في حسابه ، عندما حدد مراحل خطته .

وعاد يستعرض دقائق تلك الخطة ، حتى اقتنع بأنه لم يغفل شيئاً ، او او يدع شيئاً للظروف الطارئة .

وأتت كات مسرعة ، بعد عشرين دقيقة من موعدها .

فقالت مبتسمة :

— هل انتظرتني طويلاً ؟

ودون ان يعبأ بالرد عليها ، فتح لها باب السيارة ، وتناول حقيبة ثيابها فوضعها في القسم الخلفي .

ثم جلس أمام عجلة القيادة ، بجوارها ..

وظلت انظاره متجهة أمامه وهو يقود السيارة ، ولكنه كان منتبهاً

لكل حركة تأتيها وهي تجلس في مكانها بجانبه ، اذ كانت حواسه شديدة التحفز والانتباه هذا المساء .

وكان شعرها قد عقص في اناقة تحت الشملة الحريرية التي تربطها فوق رأسها ، كما كان وجهها مصقولاً محكم الطلاء ، وأظافرها تتألق بلونها الأرجواني البراق ، حتى لقد فكر مايكل في انها قد قضت يوماً بأسره في صالون للتجميل !

بينما التفت في معطف من الفراء فوق ثوب جديد انيق ..

وكانت تنبعث منها رائحة عطرية ثقيلة ، نفرت منها نفسه ، ولكنه لا يستطيع أن يلومها ، إذ كانت لا تعرف كيف تختار أو تستخدم الروائح العطرية ..

ونظرت كات هوارد إلى حقيبتها في مؤخرة السيارة .

ثم سألت :

– لست أدري إلى أين نحن ذاهبان ، ولكني اعتزم أن أوطن نفسي على الراحة في أي مكان نذهب اليه .

– سوف ترتاحين حقاً ..

فصفقت بيديها طرباً ، وصاحت كأنها طفلة صغيرة :

– آه .. هي مفاجأة إذاً ؟

وراحت تتأمل الشوارع المزدحمة ، والحوانيت المتلألئة بالضياء ، بينما كانا يمضيان في طريقهما قدماً ، وقد تملكها شعور من الانفعال والسرور ..

إن هذه الرحلة مع مايكل سوف تكون مسلية إلى حد بعيد ، ولكن ترى أي فندق اختاره لنزولها ؟

إنها لترجو الا يكون اختياره قد وقع على احد تلك الفنـادق الريفية القديمة ، ذات الأثاث الأثري العتيق ؟

فقد كان يصحبها إلى أفخم المطاعم وأعظم الملاهي حتى الآن ، ولكن

بعض المحبين ، متى غادروا لندن ، تهفو نفوسهم إلى الفنادق العتيقة ، إنها تعرف ذلك من تجاربها المروعة السابقة .

وفجأة صاحت به بجفلة :

– لقد اخترقت إشارة المرور الحمراء ..

فأجابها في صوت أجوف :

– هل فعلت ذلك حقاً ؟

فنظرت اليه في عجب ..

لقد كان يقود السيارة في سرعة خارقة ، وكان يبدو كأن حواسه قد تركزت أمامه في الطريق ..

ومع ذلك فلم يكن من عادته أن يجتاز إشارة المرور الحمراء ..

وكانت أساريره جامدة صارمة .. ويلوح مستغرقـاً في أفكاره وخواطره ..

ولكنها ابتسمت لنفسها ..

ثم دنت منه حتى لامست ذراعها ذراعه .

واندفعت السيارة تشق سبيلها في الطريق الزراعية ..

وكان منظر الحقول المتشابهة وحركة المحرك الرتيبة ، قد جعلت هوارد تشعر بالنعاس ..

وبعد لحظة راحت تمشط شعرها الذي عبث به الهواء .

فلما فرغت من ذلك مضت تصلح من طلاء وجهها وشفتيها ، ومـا لبثت أن قالت في مرح :

– هل تمقت النساء اللواتي يصلحن زينتهن في الطريق ؟

– انني لم أفكر في ذلك من قبل ..

– لقد رميت الي أن أفتح موضوعاً للحديث ، ولكن لعلك تفضل أن يتحدث عن نفسك ، فماذا كان موعدك هذا المساء ؟

- كنت القي محاضرة في علم النفس الجنائي .
- حسناً ، ماذا كان حديثك في هذا الموضوع ؟

فأجاب في بطء :
- لقد حدثتهم بقصة رجل قتل امرأة بغرض الانتقام ..
- لا ريب انه كان مجنوناً ..
- كلا .. لقد كان محتفظاً بقواه العقلية كاملة ..

- هراء ! فأولئك الناس الذين يأتون اعمالاً عنيفة ، يكون لديهم انحراف من نوع ما ، مهما بدوا طبيعيين عاديين ، انظر إلى ايا مثلاً ..
فسأل :
- إيا ؟
وكانت الكلمة قد اندفعت من بين شفتيه كالقذيفة دون أن يشعر ، فذكرته قائلة :

- نعم .. زوج أختي ..
وبدأت يداه ترتجفان عندما سمع اسمها ، ولكنه شدد القبض على عجلة القيادة .
وجهد في ان يبدو صوته طبيعياً وهو يقول :
- وما علاقتها بهذا الموضوع ؟

- حسناً . لا ريب ان قد اصابها الجنون حتى تقدم على عمل مروع كالانتحار . كانت تبدو سليمة العقل ، ولكن عندما بلغ الأمر حد الأزمة ..
فسألها قائلاً :
- ما الذي يجعلك تقولين انها انتحرت ؟ لقد كان حادثاً عارضاً ..
فأجابت هوارد :
- كلا .. إنها هي التي القت بنفسها ، ومن الواضح ..

وكان صوتها ينم عن ازدراء لإيما .

وربما له ايضاً ..

إذ صدق القرار الذي أصدره المحقق ، وما لبثت أن مالت على كتفه قائلة في رقة :

– ولكن دعنا لا نتحدث عنها الآن .

واستقرت نظراتها فجأة على جانب الطريق ، فانبعثت منها صيحة حادة ..

فسألها :

– ماذا هناك ؟

– لقد ظننت لحظـــة ، ان هذا هو ذلك المعبد العظيم القريب من منزلها !

وعندئذ قال لها :

– إننا ذاهبان إلى هناك ..

فابتعدت عنه بغتة ..

وقالت كأنها لا تصدق مسمعها :

– إلى منزل إيما ؟ لماذا ..

فأجاب دون أن يلتفت نحوها :

- ألم تقولي انه معروض للبيع ؟

– انه كذلك ..

– حسناً .. ربما فكرت في شرائه !

فصاحت في صوت حاد :

– آه ! انه مكان بغيض ، وسوف تسمع تلك الأنغام الجهنمية المنبعثة من المعبد ..

وكان مايكل يفكر في نفسه !

كم كان غريباً ، ان تلك الموسيقى التي كانت إيما ترتاح لسماعها ، وتسكن اليها ، تحدث أثراً رهيباً في نفس كات .

واستطردت تسأله :

ـ ولكن ما حاجتك الى منزل ريفي ؟

ـ هذه هي احدى النواحي العجيبة في طباعي ..

فنظرت اليه متفرسة في الظلام ، ولكنها لم تستطع أن تستكشف شيئاً من اساريره ..

فتضاحكت قائلة :

ـ ألا تكف عن هذا الهذر ؟ يا له من وقت غير ملائم لزيارة منزل معروض للبيع ، لا ريب انك قد جننت ..

وكانت تمزح ..

فلم تكن كات تبالي بالنزوات الغريبة لأحد الرجال ، متى كان وسيم الطلعة كهذا الرجل الجالس بجوارها .

ودفع مايكل السيارة في الممر المؤدي إلى منزل ايما ، ثم وقف في الظلال المظلمة ، بجوار الباب الرئيسي .

وأوقف المحرك ، واطفأ أنوار السيارة ، ثم هبط منها ودار حولها ، ففتح الباب المجاور لكات قائلاً :

ـ تعالي ..

ولكنها ظلت مكانها ، لا تريد ان تخرج في الظلام ..

ولم يكن مايكل يريد ان يلقى منها شيئاً من المتاعب الآن ، فقال لها :

ـ انني أريد ان اريك شيئاً معينا ، ولن يستغرق ذلك منـــا وقتا طويلا ..

فتبعته نحو المنزل ، حيث راح يحاول فتح بعض نوافذه ، ولكنها كانت

جميعا موصدة ..

ونادته خلال الظلام :

- ماذا تفعل بحق السماء !

- اني ابحث عن نافذة مفتوحة !

لا داعي لذلك ، فلا ريب ان البستاني هنا ، اذ انه يقوم على حراسة المنزل الى ان يباع ..

ووجد مايكل النافذة التي حطمها في المرة الأخيرة ..

فمد يده وفتحها على مصراعيها ، ثم اشار الى هوارد أن تتسلقها ، قائلاً :

- لقد وجدت منفذاً هنا ..

فضحكت في انفعال ، ثم هزت كتفيها قائلة :

- لا بأس من ارضاء عالم جنائي !

ورأى ساقيها الطويلتين النحيلتين يتألق بياضهما الناصع في الظلام ، وما لبثت أن اختفت !

فتبعها بدوره إلى الردهة الحالكة المظلمة ..

وكان المنزل ... البرودة والرطوبة في ذلك الوقت من الليل ..

وقد شعر برائحة الموت والفناء تملؤه الآن ، بعد ان طال غياب ابيها عنه ..

وقالت هوارد :

- انتظر لحظة ريثما أضيء المكان !

ولكنه أسرع يقول :

- كلا .. كلا لا تفعلي ، وإلا أفسدت روعة المغامرة !

ولم يكن يستطيع رؤيتها ..

ولكنه أيقن انها تبتسم ، اذ قالت له :

- هل تريد أن تقدم على مغامرة غرامية معي ؟
- أيضايقك ذلك ؟
- كلا .. ففي وسعي أن أدافع عن نفسي !

وضحكت في جذل وقد سرها ان يتحول الحديث اخيراً إلى هـذه الوجهة العادية

ثم اردفت :

- إلى أين تريد الذهاب اولاً .. دعني ارشدك ، فإني أعرف المكان جيداً ..

- الى الطابق العلوي ..

وأشعل عوداً من الثقاب ، فمضت كات أمامه ترتقي الدرج وهي لا تزال تتحدث عن المنزل قائلة :

- انه مكان بغيض ، ولست اتصور كيف تفكر في سكناه ، لقد كنت أمقته دائماً !

ودون ان تشعر ، راح مايكل يمر بها امام الحجرات الأخرى ، حتى بلغا حجرة ايبا ، فولجاها معاً حيث اغلق البـــاب خلفهما في هدوء ، ومضى إلى النافذة ، فجذب الأستار عنها .

وعندئذ تدفق ضوء القمر خلالها ، وقال :

- هذه هي حجرة ايبا !

فقالت في غير اكتراث :

- نعم ..

وما لبثت ان اضافت بجفلة :

- ولكن كيف علمت ؟

- لقد جئت إلى هنا قبل ذلك ..

وكانت تقف في مؤخرة الحجرة بعيداً عن النافذة .

فسألت في عجب :
- لماذا دعوتها ايما فقط الآن ؟
- لأنني كنت ادعوها كذلك من قبل ..
وسار في بطء حتى دنا منها كثيراً ..
وكانت تنتظر ما يقوله ، ولكنها لم تتوقع قط ان تسمعه يسألها في اهتمام :
- اخبريني ما الذي جعلك تعتقدين ان لايما عشيقاً ؟
فبدا النفور والبغض في عينيها .. يا له من وقت غير ملائم للتحدث عن إيما !
وأخيراً أجابت :
- لقد فاجأت حديثاً بينهما في التليفون !
ولم تفكر في الانكار ، بل استطردت تقول في جرأة :
- وقد استرقت السمع من (التوصيلة) .
- وهل تبينت صوته ؟
فهزت كتفيها في تبرم ، وعيناها تجولان في الحجرة وقالت :
- اني لم اعرفه !
فراح يتطلع اليها طويلاً بعينيه السوداوين الثاقبتين حتى ارغمها على تركيز حواسها معه ، قبل ان يقول في أسى :
- ولكنك تعرفينه الآن !
فاتسعت عيناها دهشة وذهولاً ، وغاضت الدماء من وجهها ، وظل فمها فاغراً كالبلهاء قبل ان تغمغم :
- أنت !
وكان مايكل يستمتع بهذه اللحظة ..
فوجمت هوارد وفقدت اتزانها ، وانه ليرى ذلك في النظرات الهيابة التي تحدجه بها ، وفي توتر جسمها ، وهي تقف امامه واضعة يديهـا في جيبي

معطف الفراء الذي ترتديه ..

واستطرد يقول :

– هل تصورت حقاً ان هذا الرجل – هذا الحبيب كما شئت أن تسميه – يقبل قصة موت ابيها على علاته ويصدقه دون ان يحاول معرفة كيف حدث ذلك حقاً ؟

وانقلب وجهه واشتدت صرامته ، عندما أردف :

– إنك من الغفلة بمثل ما انت عليه من الفجور يا هوارد !

ودوت الكلمات في اذنيها دون أن تفهمها ..

فقد الجمها الذهول وشل حواسها حتى لم تعد تستطيع حراكاً عندما رأت التغير الذي حل به ، وذلك التحول الغريب الذي اتخذته حوادث تلك الأمسية ..

بل لقد كانت تنظر اليه كأنها في حلم ، عندما ذرع الحجرة إلى الباب فأدار المفتاح في القفل ، ثم أخرجه منه ..

ورأت وجهه عندما تحول عن الباب ..

رأت ذلك الحقد الوحشي مرتسماً في أساريره الجامدة ، فطارت نفسها شعاعاً من فرط الفزع ، ولكنها فطنت إلى حقيقة الموقف فأعادها ذلك إلى الصواب ..

وأسرعت تعدو كالمحمومة في الحجرة ، مندفعة نحوه ، ثم اختطفت المفتاح من يده بينما كان يهم بوضعه في جيبه ..

فارتد إلى الخلف خطوة ، غير أنه سقط من بين أصابعه ، وإذا بكات تلقي بنفسها على الأرض فتغطي المفتاح بجسمها ..

وقهقه مايكل ضاحكاً ..

بينما نهضت من سقطتها متعثرة ، وهي تمسك المفتاح في قوة ..

فسألها في تهكم :

ـ علام كل ذلك ؟
فلما استطاعت النطق ..

قالت لاهثة :
ـ لأنني لا احب ان ابقى في حجرة موصدة مع شخص مجنون .
ـ لا تكوني حمقاء ، ففي استطاعتي ان احصل على هذا المفتاح منك حينما اشاء ..
وكانت تعرف انه يقول حقاً ..
ولكنها اطمأنت قليلاً إذ سمعت قوله ورأت ابتسامته ..
وزالت عنها رجفة الخوف الأولى ..
كان مايكل الآن ، عندما ضحك يبدو كعهده ..
كالرجل الذي طالما أحاطها برعايته وتدليله ، وأغدق عليهـــا من وده وحنانه !
والذي إذا صدق حدسها ، أخذها في تلك الرحلة ليطارحها الغرام .
وكان يمضي نحو النافذة ثانية ..
بادي الهدوء والسكينة ..
وراح يستنشق هواء الليل البارد ، ويجول بعينيه في المنـاظر المحتشدة أمام ناظره ..
حتى استقرت نظراته على المعبد القديم في النـاحية الأخرى من الوادي ..
وما لبثت أن تحولت ..
دون وعي !
الى الفناء الحجري أسفل النافذة ..
وإذا بذلك الشعور العجيب يعاوده مرة اخرى ، فيحس كأنه يهوي إلى الأعماق ، والهواء يصفر في أذنيه ، والمنـــاظر تدور حوله في سرعة

خـــارقة ، فلا يميز منها إلا حجارة الفناء المربعة ، وهي تصمد نحوه لالقائـه !

ولم يطل به هذا الشعور أكثر من ثانيــة واحدة ، إذ كانت هوارد لا تزال في الحجرة المظلمة خلفه عندما ارتد إلى وعيه .

فقال لها :

-- تعالي إلى هنا يا هوارد ..

فخطت صوب النافذة بضع خطوات ، على غير وعي ، كأنمـا كان في صوته قوة آمرة لا تستطيع مقاومتها ؟

وعندئذ اردف وهو لا يزال ينظر إلى الأسفل :

– لقد سقطت ايما هنا ، اليس كذلك ؟

فأجابت :

– لست أدري ، فلم اكن هنا .

فاستدار نحوها بغتة ، وقال :

– سيان ، فأنت في نظري كأنك بقيت هنا حتى دفعتها بيديك .

وكان صوته يدوي في الحجرة ويفيض بالاتهام ، على حين كانت عيناه تقدحان شرراً ..

وعندئذ احست هوارد بالفزع يعاودها من جديد .

فتحولت واسرعت تعدو نحو باب الحجرة ، وحذاؤها العالي يتعثر في السجادة السميكة التي تكسو الأرض ..

ولكن مايكل سبقها إلى الباب في وثبتين طويلتـين ، ثم اسند ظهره اليه وسألها :

– إلى أين تريدين الذهاب ؟

فغمغمت تقول في صعوبة :

– سوف اعود إلى المدينة .

وعندئذ امتدت يده وأطبقت على كتفها ، فأحست بأصابعه تنشب في عظامها رغم ثوبها ومعطفها السميك ..

بينما كان يستطرد :

– هل تعلمين ما أنا صانع بك يا كات ؟

فجرت بلسانها على شفتيها الجافتين .

ثم قالت :

– إذا لم تدعني فسوف أصيح مستنجدة ..

فرد مايكل :

– هيا .. املئي الدنيا صياحاً كما تشائين ، فلن يسمعك أحد ..

فهتفت في صوت كالعويل :

– ان البستاني هنا ، وسوف يسمعني ..

ولم تكن قبضته القوية قد تركت كتفها بعد ..

فقال :

– لماذا لم تصيحي ؟

– لأنني .. لأنني اريد أن أتيح لك الفرصة كي تدعنا نخرج من هنا دون فضيحة .

وتطلعت إلى وجهه في لهفة عسى أن تجد لتوسلها واستنجادها بضميره نتيجة مثمرة .

ولكنها لم تر تبدلاً في تلك الأسارير الشاحبة الجامدة ، كأنما قدت من الحجر الصلد .

وانما استطرد يقول :

– ألا تعلمين اننا في يوم الجمعة ، حيث يذهب كلاي لزيارة اخته ؟

ولو لم يكن ممسكاً بها في قوة لهوت على الأرض ، فقد خارت قواها واحست بساقيها لا تقويان على حملها .

وما لبث الحقد والفزع أن جعلا الدماء تغلي في عروقها .
فصاحت في حنق بالغ .
— دعني اذهب ..

ولكن مايكل كان يتابع حديثه كأنما لا يحس بوجودها :
— لقد اخبرني بذلك نفسه ، ولهذا جئت بك الليلة إلى هنا ..
فكان في بساطة تقريره لهذه الحقيقة ما أشاع الفزع إلى قلبهـا اكثر من اي شيء قاله حتى الآن ..
كانت كل كلمة من عبارته الأخيرة أشبه باصبع من الفولاذ البارد تقبض على قلبها وتعصره عصراً ..

فقد دبر كل هذا ..
ورتب الأمر بحيث يكونان هنا بمفردهما حتى يمكنه أن ..
واشتدت قبضتها على المفتاح الحديدي في يدها ، وسبحت عينـــاها إلى الباب ، وحول الحجرة ، كعيني لبؤة وقعت في الشرك ، تبحث عن منفذ للنجاة منه ..
وكان السكون الشامل بينهما في غياهبه ..
فلا يسمع فيه إلا تردد انفاسها اللاهثة ..

ومع ذلك ، فقد التقطت أذناها الحادتان صوت الموسيقى ينبعث خافتاً من مكان سحيق !
ذلك الصوت الذي طالما ابغضته في الماضي .. اما الآن فما احلى وقعه في مسامعها ؟
وتنهدت في ارتياح .

ثم تملصت من قبضته واندفعت نحو النـــافذة ، حيث انحنت وأشارت باصبعها صوب المعبد ، وهي تصيح كالمجنونة :
— ان كلاي لم يذهب إلى منزل اخته الليلة .. انه هنا ! وها هو يعزف

على الأرغن الآن !

وانصت مايكل إلى الأنغام الخافتة وهي تسارق الخطى إلى الحجرة ، وادرك أنها من وقع عازف ماهر ..

وانها هي الأنغام التي سمعتها « إيما » من هنا مئات المرات فأحبتهـا وسكنت نفسها اليها ..

ولكن هذا معناه ان كلاي في المعبد حقاً ، ولم يذهب لزيارة أخته كعادته ..

وكانت هوارد ممعنة في صياحها وهي تقول :

– ما من احد غيره يقرب الأرغن ، وانك لن تستطيع معي أمراً ، فسوف يفرغ من عزفه وشيكاً ويعود إلى هنا .

فمضى إلى النافذة وامسكه بها من الخلف وهو يقول :

– لن يعود بالسرعة التي تظنينها .

فراحت تناضله مبتعدة عن النافذة ، وهي تغرس أظافرها في ذراعيه ، وتصيح :

– انك تهذي كالمجانين !

فأرغمها على السكون ، وتمتم :

– لقد اخبرتهم كيف احضرتك إلى المنزل ، وجعلتك تصنعين بنفسك ما صنعته بها .. قلت لهم ، سوف تموت الآن بنفس الطريقة التي قتلت بهـا ايما ..

فراحت تركله بقدميها الصغيرتين صائحة :

– كلا .. كلا دعني اذهب .

ولكنه اخذ يهزها في غضب ، ويقول بصوت كقصف الرعد :

– تصوري انك إيما ، وقد حطم الناس قلبك وافسد حياتك إلى الأبد ، تصوري ذلك لحظة .

وكانت اسنان هوارد تصطك ذعراً وهي تئن كالذبيحة .

ولكنها أدركت فجأة ان ذلك الأرغن اللعين قد كف عن العزف ، فهتفت في حشرجة رهيبة :

ــ لقــد كف الأرغن عن العزف ، وسوف يعود كلأي الآن .. سوف يعود للتو ..

إلا أنه أجابها في هدوء وسكينة :

ــ سوف تموتين قبل ذلك ..

فتملصت منه وهرعت إلى النافذة حيث صاحت صيحة هائلة .

غير انه سرعان ما كان يجانبها وقد اطبق يده على فمها كي يكتم صوتها ، بينما أمسك بها بيده الأخرى .

ولكنها انفلتت من بين أصابعه ، تاركة معطفها في يده ، واندفعت نحو الباب ، وقبل أن تستطيع يدها المرتعدة أن تواج المفتاح في القفل ، كان قد انقض عليها ثانية ..

فانطلقت تعدو في الحجرة بعيدة عنه ، وارتطمت بخوان كان موضوعاً بجوار الفراش فسقط بما عليه من مصباح وكتب فوق الأرض

فكانت تناضل كوحش أحاط به الصائدون ..

ولم يكن مايكل يتوقع أن تكون على هذا القدر من الخفة والسرعة .

ففي محاضرته صورها للطلبة على انها لم تجد القوة على النضال والمقاومة .

اما الآن ، وهي في قبضته ، فقد كانت تعدو وتنثني كأنها وحش يفر من مطارديه ..

وكانت لا تفتأ تصيح في انين :

ــ انك مجنون خطر ، ولن تستطيع ان تقتلــــني ، فلن تفلت من العقاب قط .

وكان شعرها المقوص في عناية قد تهدلت خصلاته فوق ظهرها ، على حين

تمزق ثوبها في يده عندما امسك بها ليقيد حراكها .

وعادت تصيح في ذعر طاغ :

– إنني لم اسيء إلى ايما قط ، لقد كذبت عليك آن ، وافهمتك الأمر على غير حقيقته ، فانقدت لأكاذيبها مع انها السبب في كل ما حدث ، ان (آن) مجنونة كأمها .

وكان وجهها متقلصاً بشعاً ، وقد اختلطت الأصباغ فوقـــه وامتزجت بدموعها ، عندما استندت إلى الجدار متشبثة به وهي تعاود الصياح :

– إنني لم أسيء إلى ايما .. لست انا التي فعلت بها ذلك ..

وانقلبت تتضرع في صوت يمزق نياط القلوب :

– ارجوك يا مايكل ، لا تقتلني ، هبني فرصة للحياة ، هلا استمددت هدوءك حتى نتحدث في الأمر ؟

ثم تخلصت من قبضته القوية ..

وأسرعت إلى النافذة المفتوحة صارخة :

– الي يا كلاي ! النجدة ! كلاي ! النجدة ..

فلحق بها مايكل وجذبها بعيداً عن النافذة ، وهو يقبض على عنقها ليكتم هذه الصرخات الوحشية ..

فأخذته الرعدة عندما لمس عنقها ..

وانتهزت الفرصة فأفلتت من يده وقبعت في أحـد زوايا الحجرة وهي تناضله بكل ما بقي فيها من قوة ..

ولكنه راح يجرها على الارض عائداً بها إلى النافذه .

وامسك بعنقها من جديد ، فأرغمها على النهوض حتى انثنى ظهرهـا على قاعده النافذه ..

وعندئذ سمع صوت سقوط جسم معدني على ارض الحديقة .

ولكن مايكل لم يكن يشعر بشيء سوى المقاومة الضعيفـة المنبعثة من

الجسم الضئيل الذي بين يديه .

وكان العرق يتصبب من جبهته فيملأ عينيه ، بينما كان ضغط يــديه على عنق هوارد قد رفع قدميها عن الأرض شيئاً فشيئاً بحيث راحت تتأرجح فوق قاعده النافذه .

وفي جهد اخير شدد مايكل الضغط ، وإذا بهــا تنفلت من بين يديه ، وتهوي في الفضاء .

وسمع صرخة مكتومة ..

فلما نظر إلى اسفل ، لم تكن كات اكثر من بقعة هــامده داكنة ، فوق حجاره الفناء القاتمة .

الفصل الثالث عشر

راح مايكل جوبس يدير عينيه في الغرفة ذاهلاً مشدوهاً .

فقد كانت في حالة عنيفة من الفوضى ، وقد انقلب الأثاث ، وتناثرت الستائر وأغطيـــة الفراش فوق الأرض ، وامتلأ المكان بالكتب وقطع المصباح المحطم .

انها لم تعد حجرة ايما الآن ..

وبوده ان يفر منها في اقرب وقت ، فالتقط معطف هوارد الملقى بجوار النافذه ، واسرع نحو الباب .

ولكنه وجد الباب موصداً !

آه ! طبعاً ، انه هو الذي اوصده .

واخذ يبحث عن المفتاح فوق الأرض ، فلم يجد له أثراً .

فدس اصابعه المرتعده في شعره المشعث المتهدل فوق جبهته ، واخــذ يعصر ذهنه ليذكر اين وضع المفتاح .

نعم . لقد أخذته كات في وقت ما .

ومضى إلى النافذه فنظر إلى الأسفل ..

ها هي هوارد كومة من الحطام فوق الحجاره البارده للفناء ..

لقد ماتت هوارد ، ولن تضايقه بعد الآن ..

ولكن اين المفتاح ؟

آه .. انه ليذكر انه سمع رنيناً حاداً في لحظة ما بعد ان كفت موسيقى الأرغن عن العزف ..

فأدرك ان المفتاح ملقى الآن على الأرض بجانب هوارد .

واستقرت انظاره على الموقد ..

فأسرع يتناول محرك النار الحديدي الثقيل ، ويمضي محاولاً تحطيم القفل ..

كان ينبغي ان يغادر هذه الغرفة في الحال ..

ولكن القفل العتيق كان متيناً ، فلم يتزعزع من موضعه .

فألقى مايكل المحرك من يده ثم انقض على الباب بكتفه ، محاولاً فتحه عنوة ..

فكان يستجمع كل ذره من قوته في عضلاته ، وهو يرتمي على الباب مره بعد الأخرى ، حتى تحطم الباب دفعة واحده ، وسقط مايكل في الردهة من شده الاندفاع ..

وتنهد في ارتياح بالغ ..

ثم وقف برهة ، مرهف السمع ، وهو لا يزال يتأبط معطف كات هوارد ..

وكان السكون والظلام يخيمان على المنزل ..

فراح يتحسس سبيله فوق الدرج في حذر شديد حتى بلغ النافذة التي دخل منها ، فتسلقها .

وكانت الحديقة مقفره موحشة عندما مضى يدور حول المنزل بداقع خفي ، لم يدر كنهه وقتئذ ..

فلما بلغ القسم الخلفي ، الذي تشرف عليه نافذه ايما المفتوحة ، راح يسير على العشب ، متنكباً الممرات المرصوفة خشية ان يسمع صوت وقع

أقدام فوقها .

وكانت جثة هوارد مكومة حيث سقطت !

فرفعها في خفة ، ولفها في المعطف ، ثم حملها عائداً بها إلى حيث توجد سيارته . .

فكان لا يشعر بثقلها ، فكأنه يحمل المعطف خالياً .

وفيما هو يدور حول المنعطف ، وقف مكانه مصعوقاً بلا حراك ، فقد طرق سمعه وقع أقـــدام تقترب نحوه ، فوق الممر المرصوف . . وصوت رجل يغني ؟

فأسرع ينحني بحمله ، مختفياً خلف ظلال خميلة من الزهر بجوار الطنف الرخامي للشرفة .

فكان كلاي يرفع عقيرته بالغناء مترنماً بأنشودة دينية ، وهو يسير في خطى سريعة نحو باب المنزل .

وما لبث أن فتحه واختفى بداخله

فما كاد مايكل يرى الباب يغلق ثانية حتى خرج من مكمنـه ، وأسرع يعدو فوق المعشب حتى بلغ السيارة .

فوضع الجثة فوق المقعد الخلفي . .

ثم تسلل إلى مقعد القيادة وأدار المحرك ، وما لبث أن اندفع إلى الأمام راحلاً عن المكان إلى الأبد .

وكان الهواء يحرك أغصان الشجر في حفيف متتابع ، والطيور الليلية تحلق فوق الزهور بعد أن خلت الحديقة ثانية والقمر في طريقه إلى المغيب ، بينما أخذ الضباب الخفيف ينتشر ويمتد من ناحية التلال القريبة . .

وكان منزل إيما ينهض في مكانه كعهده منذ مئات من السنين ، ساكنـاً هادئاً ، حتى لتحسب ، إذ ترى نوافذه الأمامية موصدة ، وان قاطنيـه ينعمون بنوم هادئ متصل .

وفتح الباب الرئيسي دفعة واحدة ، وخرج منه كلاي يعدو ، مرتدياً قميصه ..

وراح يتطلع إلى الممر المؤدي إلى البوابة الخارجية ، فرأى الضوء الأحمر بمؤخرة السيارة ، في اللحظة التي كان فيها يختفي عند منعطف الطريق .

فندت عنه صيحة دهشة حادة ..

ثم أسرع يعدو نحو المنزل ثانية ، حيث مضى قدماً إلى جهاز التليفون ..

وفي صوت يتهدج انفعالاً .. طلب إلى العامل أن يصله بمركز البوليس ..

* * *

وجد مايكل جويس نفسه يقود السيارة على غير هدى في هذه الطرق الريفية ، دون أن تكون لديه أقل فكرة عن الوجهة التي يذهب اليها ..

وكان خائر الجسم ، منهوك القوى ، بعد ذلك الجهد العنيف الذي انفقه في الساعات الأخيرة !

فكان يشعر بحاجة قصوى إلى النوم ، وفي الوقت نفسه كان يخامره شعور غامض بالفوز والانتصار .

لقد قام بما أراد أن يقوم به ودبره ..

وقد انتقم لايما ..

فمن العدل أن تموت كات كما ماتت ايما ..

فالعين بالعين ، والسن بالسن ..

هذه هي العدالة ..

العدالة الأزلية القديمة ..

وهي أقدم عهداً ، واشد تبجيلاً من هذه القوانين الوضعية الحديثة التي لا تسمح لك بالاقتصاص واخذ ثأرك بيديك .

فالوسيلة التي اتبعها أيسر منالاً ، واكثر انطباقاً على العدالة وأسرع اثراً ، وقد قال لطلبته :

إنها كانت جريمة دبرت في وعي كامل وعقل سليم ، ونفذت دون أن تتخللها ثغرة واحدة .

وتململ في مكانه قلقاً ..

فإنه لم يقدم لطلبته وصفاً كاملاً للقضية ، فلم يعلموا كيف كذبت عليه كات ، حتى في لحظاتها الأخيرة ، فأنكرت انها اساءت إلى إيما قط ، وكيف ناضلته وقاومته ، بما جعله الآن خائر القوى منهوكاً ..

لقد اغفل بعض التفاصيل التي سوف تعاونهم عند تحليل عقلية كات المنحرفة ..

بل انه ليشعر انه أغفل شيئاً آخر .

والتفت وراءه إلى المقعد الخلفي ..

وفجأة صفا ذهنه ، وسرت في بدنه قشعريرة باردة عندما صدمته الحقيقة الكاملة لموقفه الآن ، وتبدت له في وضوح وجلاء .

فها هو - مايكل جويس - الطبيب الذائع الصيت بهارلي ستريت ، واخصائي جراحة المخ المعروف .

ها هو يقود سيارته في طرق غير مألوفة لديه ، وفي غمرة الليل ، ومعه جثة إمرأة قتيل .

ولم يعد يفكر إلا في شيء واحد فقط ، هو ان يتخلص منهـا في اقرب وقت ..

فهي لم تعد كات بعد ..

إنما هي حمل ثقيل خطر يجب أن يخفيه عن العيان ، وأن يلقي به في اي مكان .

واربد وجهه إذ رأى جحافل الضباب تسد الطريق في وجهه .

وكان جانبا الطريق قد اختفيا عن ناظريه ..

ولم يعد أمامه سوى ظلمة حالكة كثيفة ، دون ان تخترقها انوار السياره الامامية .

فكانت ذرات الضباب قد ظللت زجاج السياره امامه ، حتى لم يستطع الرؤية ..

فأوقفها واخرج منشفة صغيره راح يمسح بها الزجاج لينظفه ، وفي خلال ذلك يرهف السمع ، فلم يسمع سوى هدير المحرك المتتابع .

وفي عزم مفاجيء ، سار مايكل إلى مؤخر السياره وراح ينظر إلى الجثة المسجاه فوق المقعد الخلفي تحت المعطف ..

لقد كانت هذه فرصته الذهبية للخلاص منها ففتح الباب ، وشرع يقوم بما اعتزمه ..

وما كادت يده تمس الفراء ، حتى انبعث خلفه زئير يصم الآذان ، تبعه صوت احتكاك السجلات بالارض وهي توقف فجأه ..

فاستوى مايكل واقفاً ، وصفق باب السياره في عنف ، ثم استدار إلى الخلف ..

وإذا بضياء ساطع يبهر عينيه وينبعث من مصباحي سياره نقل كبيره تقف خلف سيارته مباشره ..

وهبط من السياره جندي امريكي فارع الطول عريض المنكبين ، اقترب منه ، وهو يضع يده في خاصرته ..

ثم يقول محنقاً :

– ألا تستطيع أن تتخير مكاناً أنسب من هذا للوقوف ؟

وكان مايكل واقف بجوار النافذة الخلفية لسيارته ليحجب المقعد الخلفي ..

فأجاب متلعثماً من رهبة المفاجأة :

– لقد وقفت لانظف الزجاج الأمامي ، إذ لم اكن استطيع الرؤية .

فرد الامريكي :

– ومن ظننتني ؟ هرة تخترق أنظارها الظلام وترى على مبعدة ؟

ثم ربت على كتفه في مرح ، وأردف :

– والآن هل تعرف اين نحن يا صديقي العزيز ؟

وكان مايكل قد رأى لافتة في الطريق قبل أن تزداد كثافة الضباب ، فقال :

– إننا في طريق بورتسماوث الرئيسي ..

– حسناً .. شكراً لله ان عرفت هذا ، فذلك هو الطريق المفروض أن أمضي فيه ؟

فانتظمت انفاس مايكل ثانية ، وعاوده الاطمئنان ، فقال :

– يمكنني أن اصف لك طريقة الذهاب إلى هناك ..

فأجاب الامريكي :

– كلا .. شكراً ، سوف أتبعك وكفى ..

فأسرع مايكل يقول :

– ولكنك لن تستطيع ذلك طويلاً .. فسوف اعرج على طريق جانبي بعد قليل .

وكان يدعو الله في نفسه أن يجد منعطفاً في الطريق أمامه !

– حسناً ، أتبعك إلى أن تصل إلى غايتك ، وما عليك إلا أن تشير لي ..

ثم قفل راجعاً إلى سيارته ، فلم يجد مـــايكل مناصاً من العودة إلى عجلة القيادة بدوره .

ومن ثم مضى في طريقه لتتبعه الشاحنة ..

ولم يجد منعطفاً خلال ميلين قطعهما ونفسه تطير شعاعـاً بين الشك واليقـين ..

بين اليأس والأمل ..

ولكنه ، إذ كاد يقطع الرجاء نهائياً ، ورأى في ضوء المصابيح الامـامية ثغرة في الجانب الايسر من الطريق ، ما لبث أن تبين انها طريق جانبي ، فدار بسيارته منعطفاً ..

ثم اشار بيده إلى سيارة النقل أن تمضي قدماً ، وأخرج رأسه من النافذة فصاح بالامريكي :

– سر أمامك في طريق مستقيم تصل إلى بورتسموث ..

– شكراً يا جورج .. إلى اللقاء ..

* * *

مضى مايكل في الطريق الضيق في بطء وحذر ..

انه سوف يخرج الجثة من السيارة ، عندما يبتعد عن الطريق الرئيسي بمسافة كافية ، ويتركها ..

يتركها في أي مكان يجده ..

فليس يهمه اين يضعها ، وانما المهم أن يتخلص منها على أي وجه ، في حقل مهجور ، او تحت كومة من العشب الجاف ، وسوف يكون الضباب خير عون له ..

فلن يراه أحد البتة ..

وعندئذ راح يتفرس في معالم الطريق حواليه ، ليرى ان كان قريباً من احدى القرى ، ام يسير بين الحقول المكشوفة .

وفجأة ظهر امامه شبح يقف في عرض الطريق ، ويلوح بيده مشيراً له بالوقوف !

فدار مايكل بالسيارة حوله ليتقي الاصطدام به ..

ثم اوقفها دفعة واحدة !

وبعد لحظة ، رأى كهلا يقف بجوار النافذة ويقول له :

– أليس في وسعك أن تساعدني قليلاً ؟ لقد انحرفت عن الطريق فغاصت عجلات سيارتي في احدى الحفر .

وكان مايكل يصغي إلى ذلك الصوت العميق ، واللهجة المثقفة ، وقد تملكه شعور مرير بالخيبة واليأس .

ولم يكن يجرؤ على النظر خلفه ، ولكنه كان يعلم ان جثة كات لم تكن مغطاة حتى بمعطف الفراء .

ولو أن ذلك الغريب سرحت أنظاره إلى المقعد الخلفي دون قصد لرأى الجثة حتماً ..

وعندئذ اجاب في اقتضاب :

– انني شديد الأسف إذ لا استطيع الوقوف الآن .. انني في عجلة شديدة ..

– لعلك اذن تتفضل بحملي إلى منزلي ، فهو لا يبعد عنا إلا زهاء نصف ميل ، حتى استطيع استخدام التليفون .

ورأى مايكل ان ينتحل العذر الذي كان دائماً عذراً مقبولاً .

فقال في اقتضاب :

– شد ما يؤسفني ألا يمكنني ذلك ، انني في طريقي إلى حالة عاجلة .

ولم يتحرك الرجل من مكانه ، بل قال :

ـ هل انت طبيب ؟

فأجاب مايكل :

ـ نعم .. ويجب ان أسرع ..

فابتسم الكهل وقال :

ـ حسنا .. انني سعيد الحظ إذن ، ان اسمي فاريل ـ الدكتور فاريل ولي عيادة في هذه الجهة ، وهناك طفلة أصيبت بجراح شديدة تنتظر ذهابي لرؤيتها .. ولكن الى اين انت ذاهب ؟

إلى أين ؟ اجل الى أين ؟

وتمتم مايكل :

ـ الى نهاية هذا الطريق ؟

وكأنما وثق الدكتور فاريل من معونة زميله ..

فقال كمن يقرر حقيقة واقعة :

ـ حسنا .. لعله يحسن أن أترك سيارتي وامضي معك إلى اقرب مكان أجد فيه جهازاً تليفونياً .

وراقبه مايكل ، مكتوف الايدي لا حيلة له في الامر ، بينما كان يدور خلف السيارة ، ويأتي إلى الباب المفتوح له .

ولم يتسع له الوقت لاكثر من نظرة واحدة يلقيها خلفه ، قبل ان يضع الدكتور فاريل قدمه على سلم السيارة ..

ولكنه إذ انحنى ليدخل ، خطرت له فكرة طارئة ..

فقال :

ـ آه ! لحظة واحده ، ينبغي ان احضر الحقيبة من سيارتي .

واسرع يختفي بين الضباب ..

فاستدار مايكل الى الخلف ورفع الجثة الى آخر المقعـــد ، ثم طرح

فوقها معطف الفراء محاولاً اخفائها عن العيان .

وعاد الدكتور فاريل ..

فجلس بجانبه ووضع الحقيبة تحت قدميه ..

فانطلق مايكل بالسياره وهو يقول :

– إلى اين تريد ان اوصلك ؟

– الى اي مدى ستمضي انت ؟

ترى ما هو الجواب على مثل هذا السؤال ؟ وكيف يذكر اسم مكان قريب مناسب من هنا ؟

وأخيراً قال :

– لست واثقاً تماماً من بعد المكان عن هنا ..

فسأل الدكتور فاريل :

– انني أعرف المنطقـــة جيداً .. وقد يكون في وسعي أن أعاونك !

فأجاب مايكل :

– كلا .. إنه مكان بعيد ، شكراً لك ؟

آه ! لو أن هذا الرجل يكف عن أسئلته ، لكان في وسعه ان يفكر في الأمر ..

ولكن الكهل رمقه في حدة من وراء عوينأته .

ثم قال :

– هل أنت من لندن ؟

– نعم ..

– ألك خبرة بكسور الجمجمة ؟

فابتسم مايكل ..

انه آمن مطمئن طالما تحدث هذا الرجل عن المهنة ..

ثم قال :

– إلى حد ما ..

فصفر الدكتور فاريل بشفتيه ، وقال :

– لقد كان في وسعي أن أنشد معونتك الليلة إذن ، فلماذا أتيت متأخراً ؟

– في أي شيء كنت تريد معونتي ؟

– تلك الطفلة التي كنت أخبرك عنها ؟

– هل أصيبت في أحد حوادث الطريق ؟

فأجاب الدكتور فاريل :

– نعم .. لقد صدمت سيارة نقل إحدى السيارات الخاصة في الضباب .. وكانت الطفلة تجلس في المقعد الخلفي ، فتلقت أشد ما في الصدمة من عنف .. وهي الآن غائبة عن الوعي ، والدماء تنزف من قطع أذنها اليمنى .. وفي رأيي انها أصيبت بنزيف في الشريان الأوسط ؟

فسأله مايكل :

– هل استعادت شعورها في وقت ما ؟

– نعم . بعض الوقت ، فكانت تبدو في حالة طيبة ، ثم غشي عليها ثانية ، وهذا ما دلني على أنها في خطر شديد ؟

واستيقظت غريزة المهنة في نفس مايكل ، وأدرك أن فرصة نجاة الطفلة ضئيلة تماماً ، فقال :

– ربما كنت على حق ..

وخيم فوقهما الصمت برهة ..

ثم هتف الدكتور فاريل :

– مهلاً . هذا هو الطريق ، هل يمكنك أن توصلني إلى هناك ؟

– نعم ..

فقال فاريل وهو يطلق ضحكة عالية :

– حتى أحضر الوفاة على الأقل ؟

ولكن مايكل قال معقباً :

– لقد رأيت حالات خارقة نجا منها المصابون بكسور في الجمجمة !

فقال الدكتور فاريل في جفاء :

– لقد رأينا جميعاً مثل هذه الخوارق ، ولكني لا أتوقعها قط ، ولا أحسب لها حساباً ، كما اني لا ابالي بهذا الأمر او ذاك .

فقال مايكل :

– اما انا فأحسبني ابالي بذلك كثيراً ، إنني دائماً اكره أن يموت أحد مرضاي .

فزجر الكهل ساخراً من حماسته وقلة خبرته ، وقال :

– إن ذلك نوع من العاطفة الرقيقة سوف تتغلب عليه عندما تقتل من المرضى مثلما قتلت ؟

– لست اظن ذلك .. فإننا نشعر بكثير من الغبطة ، عندما نحاول انقاذهم ..

فقال الدكتور فاريل :

– إن الأمر إذاً – في حالتك هذه – لا يعدو مجرد الزهو والخيلاء أما الحقيقة فغير ذلك اينما نظرت لها ، ليس لدى الانسان أي شعور رقيق ، ولكنه فقط يظن ان لديه هذا ..

ثم مضى يتابع القول في سخرية وهو يمعن النظر خلال الضباب :

– وان الناس دائماً يفعلون اشياء يبررونها بدوافع كاذبة غير صحيحة ، ولو انهم واجهوا الحقائق ، لأدركوا ان الباعث الحقيقي لما يفعلونه ، إنما هو الاثر والأنانية ، او العادة ، او الفقر ..

– إن الحياة لا تساوي قلامة ظفر إذا نظر المرء اليها من هـذه الوجهة فقط .

فقهقه الطبيب الكهل ، وقال :

– إنها كذلك حقاً ، ولكني أخذت نصيبي من الاستمتاع بهـا كاملاً .. هـا قد وصلنا .. الآن ، سوف نجد في انتظارنا موقفـا اليماً مع الأم ؟

فسأل مايكل :

– كم عمر الفتاة ؟

– إنها مجرد طفلة ، في الثانية عشر ..

فردد مايكل هذه العبارة في ذهن شارد :

– في الثانية عشر ، إنها في عمر آن ..

فنظر اليه الدكتور فاريل ، وقال :

– آه ! ألك ابنة ؟

– كلا .

فلما وقفت السيارة ..

قال الدكتور فاريل :

– احسب انني لن استطيع اغراءك على الدخول والاشتراك معي في فحص المصابة ، فإن اهل المريض يرتاحون دائماً إذا وجدوا رأياً ثانياً يقول بأنه ليس ثمة أمل في الشفاء ..

وكان في صوته من قلة الاكتراث ما أثار في نفس مايكل نوعاً من الحنق والغضب .

وعلى الرغم من انه لم يكن خيالياً ..

إلا ان برود هذا الطبيب وتشاؤمه – او لعل مذهبه الواقعي ، كما قال – قد أشعل مراجل الغضب في نفسه ، واحس بالرثاء والشفقة

نحو مرضاه .

فقال في برود :

– ربما كان هناك امل في الشفاء .. فالطفلة على قيد الحيـــاة ،. اليس كذلك ؟

فهز الآخر كتفيه .

ثم غادر السيارة وحقيبته في يده !

وتردد مايكل لحظة خاطفة ..

وما لبث ان تبعه ..

الفصل الرابع عشر

رأى مايكل في الظلام صفاً من اكواخ العمال الصغيرة المشيدة بالآجر ، أمامها حديقة صغيرة وسياج خشبي منخفض ، فتح الدكتور فاريل أحد أبوابه ..

ثم مضى في الممر الضيق المؤدي إلى المنزل ..

وبينما كان مايكل يسير في أثره ، ظهر أحد رجال الشرطة قادماً على دراجته ، متجهاً نحوهم .

فما كاد مايكل يراه حتى جمد في مكانه بلا حراك ، وقد أحس برغبة جنونية في أن يطير عائداً إلى سيارته ..

ولكن الشرطي لم يعره التفاتاً ، بل حيا الدكتور فاريل ، وأعرب عن أسفه لهذا الحادث المروع ، وفي الوقت نفسه فتح باب المنزل وبدت منه سيدة متقدمة العمر ..

وقالت لفاريل في لهفة :

– يا لله ! لقد حسبنا انك لن تعود يا دكتور .

ومضت أمامهم إلى ردهة صغيرة رطبة ، انتشر الضباب في أرجائها فظلل المقاعد والأريكة ، وهي كل الاثاث الذي كان بها ..

فقال الدكتور فاريل :

ـ لقد فضلت أن أحضر زميلاً لي لنتبـادل الرأي معـاً يا مستر روبرتس .. الدكتور ..

وسكت منتظراً أن يذكر الغريب اسمه .

ولكن مايكل قال في جفاء :

ـ أين المريضة ؟

وعندئذ فتح باب إحدى الحجرات بغتة ، وخرجت منه سيدة شابـة ترتدي ثوباً من الصوف .

فاندفعت نحو فاريل صائحة :

ـ أواه يا دكتور .. إنها لا تزال بغير حراك ، وقد نقلنـاهـا إلى هنا ..

وأدرك مايكل أنها والدة الطفلة المصابة .

كما نظر إلى حيث أشارت فرأى المطهى وفي وسطه مـائدة صغيرة رقدت عليها الطفلة .

فمضى نحوها وبدأ يفحصها ..

وكان تنفسها ضعيفاً غير منتظم ، وفيما عدا ذلك فلم يكن يبدو عليهـا شيء من مظاهر الحياة ..

ولحق به الآخرون ، فلم يشعر مايكل بوجودهم ، إذ كان منصرفاً إلى فحصه ، وهو يرقب غرائز الطفلة في رفق ويمعن النظر في الجرح العميق الذي كان فوق اذنها اليمنى .

ثم فتح اجفانها المغمضة ، وأشعل قداحة أمام عينيها ، ولكنهما ظلتا جامدتين لا تتحركان .

وعاد يرفع رأسها وفحص أعصاب العنق .

ثم اعصاب الذراعين ، حيث وجد الأيسر اكثر رخاوة من الأيمن .

وأخيراً .. جعـل يختبر الانعكاس العصبي لقدميهـا ، في فقرات

حادة سريعة ..

ولم يكن يسمع في الحجرة سوى دقات ساعة المدفأة ، وتنفس الطفلة المضطرب ..

ولاحظ مايكل ان الحجرة دافئة ، وان المصباح الكهربائي المكشوف المعلق فوق المائدة تنصب أشعته ساطعة قوية فوق وجه المصابة الشاحب .

فنهض من انحنائه قائلاً لفاريل :

- انك على حق ، فهي مصابة بنزف من الشريان الأوسط .

ولم تكن لهذه الكلمات أي معنى لدى الأم ..

ولكنها كانت تشعر بشيء من الطمأنينة وهي ترى مظهره وحركاته القوية التي توحي بالثقة ..

فسألته ضارعة :

– هل ستنجو وتعيش ؟

فربت مايكل على كتفها في رفق ..

ثم تبادل النظر مع الطبيب قائلاً :

– سوف أجري لها الجراحة الآن ..

وشهق فاريل ..

فلم يجبه مايكل ، وإنما تحول إلى مسز روبرتس قائلاً :

– إني في حاجة إلى وعاء كبير لأعقم ادواتي ، وكذلك بعض الملاءات النظيفة ، فإن معي كل ما يلزمني غير ذلك ..

فأسرعت خلفه وهو يعود إلى الردهة ، ملقياً بتعلماته .

ونظر الدكتور فاريل إلى الطفلة المسجاة .

ثم قطب وجهه ..

فإذا كان هذا الأحمق الشاب يريد أن يقدم ، مدفوعاً بعاطفته ، على مثل هذه المخاطرة ، فعليه أن يصدر أوامره كما يشاء .

ولكن مضى وقت طويل منذ أن كان الدكتور فاريل يعامل كطبيب تحت التمرين !

وكان مايكل قد مضى إلى سيارته ، فأخرج حقائب الادوات والمعدات الجراحية . .

كان فكره الآن مركزاً في الطفلة المصابة ، ولم يجـل بخاطره قط أي شيء عما كان داخل السيارة فوق المقعد الخلفي .

وتناول الدكتور فاريل حقيبة ثقيلة وهو يقول في وقار :

– اصغ اليّ .. إن الأمر لا يستحق المجازفة ، فلو مـــاتت اثناء العملية ، أو كنتيجة لها فسوف يكون هناك تحقيق ، وانك لا تدري قط كيف تنتهي مثل هذه الأمور .

– ليس في الأمر مجازفة مـــا ، فسوف تموت الطفلة خلال نصف ساعة ، ولن يمكن نقلها إلى المستشفى في هذه الفترة ، بل سوف تموت حقاً فعلينا ان نحاول انقاذها بهذه الجراحة قبل ان يحدث ذلك .

– ولكن هذا من عمل اخصائي متمرس ، ولست ازعم لنفسي العلم بهذه الجراحة ، ولذلك لن أمد يدي فيها .

فقال مايكل خلال شفتيه المطبقتين :

– سوف تكون على ما يرام . .

وبقي الشرطي مع الأم ومسز روبرتس في الردهـة يرقبون باب المطهى الذي أغلق في احكام دونهم .

أما في داخله فقد كانت معدات الجراحـة قد تمت ، وخلع مـايكل معطفه وثنى أكمام قميصه . .

ثم دس يديه في قفاز من المطاط . .

على حين كان كل من الطبيبين قد وضع على وجهه قناعاً أبيض .

وقد ثبت مـايكل على جبهتـه ذلك المصباح القوي الذي يضعـه

الجراحون فوق جباههم .

وكانت المائدة التي رصت عليها معدات الجراحة مغطاة بغطاء أبيض ..

وكذلك كانت الطفلة ايضاً ، مختفية تحت أغطية بيضاء لا يظهر منها سوى رأسها !

ووضع الدكتور فاريل اوعية الماء الساخن وأحواض الصيني ، جاهزة للاستعمال ..

ثم نظر إلى الجراح ..

وما لبث ان دس طرف ربطة رقبته في صدر قميصه ، ثم ناوله الأداة الأولى !

وانحنى مايكل وبدأ العمل في سرعة وحزم .

كانت عملية دقيقة معقده ..

وكان يعمل فيها في خفة غريبة ، غافلاً عن كل شيء سوى تلك الاعصاب والخلايا الحية المخ الذي يعمل على انقاذها .

وكان الدكتور فاريل يقف عند مرفقه ، يناوله أداة بعد الاخرى ، وينقل الاوعية والاواني المستعملة في شعور متزايد بالاحترام والتقدير .

فلم يكن هذا الشاب طبيباً حدثاً متحمساً التقطه في الطريق وسط الضباب ..

كلا ..

ان هذا الرجل يعرف ما يفعله تماماً ، وسوف يكون من دواعي الاسف ، أن يحدث شيء غير متوقع ويضطر إلى مواجهة التحقيق معه ، ولكنه قد انذره !

وإذا ما علمت نقابة الاطباء يوماً بما حدث فسوف يقول في ضمير مطمئن :

- انه قد اعترض في قوة على هذه المخاطر .

وكان مايكل يستغل كل ذرة من قوته وهو يقوم بعمله ، ويناضل الموت والوقت معاً .

فقد استغرقت الجراحة وقتا طويلا ، وهو يخشى ان تموت الفتاة وهي ما زالت تحت المخدر ..

فقد كان تنفسها المضطرب يزداد خفوتا ، وينبغي ان تعطى منبهاً للقلب في الحال ، فقال :

- إن التنفس يوشك ان يقف ، امعك شيء من الكورامين ؟

فقال قاريل :

- انني لا أحمله قط .

وكانت عينا مايكل مركزتين على الطفلة عندما قال :

- إن هنـــاك بعضا منه في سيارتي ، في حقيبة صغيرة بالجيب الامامي .

فوضع قاريل ما بيده على المائدة وقال :

- سوف اذهب لاحضارها .

وما كاد الباب يوصد خلفه ، حتى جمدت يدا مايكل في الفضاء .

وخيل اليه ان القناع الذي يغطي فمه يوشك ان يخنقه ، عندما تبين حقيقة ما فعله .

لقد ارسل قاريل إلى السيارة ليجد كات ، ليجد الجثة التي سوف تقوده إلى المشنقة !

وارتعد مايكل ، وانحنت رأسه ..

وعندئذ انعكست أشعة المصباح من فوق جبهته على رأس الطفلة ، وفي الحال عاد إلى العمل ثانية ..

فهذه الطفلة تأتي في المقام الأول ، اما شأنه مع كات فسينظر فيـه

فيا بعد ..

وطالت غيبة فاربل ، فيا خيل له كثيراً ، وكان العرق يتصبب غزيراً من وجهه وجسمه كله !

على حين أوشك تنفس الطفلة أن يخبو إلى الأبد ..

يا لله ، ما لدقات هذه الساعة قد ازدادت ارتفاعاً ؟

ولماذا لم يعد هذا الأحمق بأنابيب الكورامين ؟

وما يهمه ما في السيارة ، متى كانت حياة الطفلة تستل منها ؟

وتمتم مايكل بين شفتيه .

ثم تناول أداة أخرى ..

والواقع انه مضت دقيقتان ، قبل أن يعود الدكتور فاربل مسرعاً ، وفي يده علبة معدنية صغيرة .

وكان وجهه مربداً شديد الامتقاع !

ولكن مايكل لم ير سوى نظرة الفزع الرهيب التي ارتسمت في عينيه فوق القناع ..

وقابل الطبيب نظرته بثبات ..

وقال في هدوء بالغ :

– إنها لم تكن في الجنب الأمامي ، ولكني وجدتها ؟

إذن فقد علم كل شيء ..

وعندئذ تنهد مايكل في ارتياح وقد انجاب عن صدره حمل ثقيل ، ثم جذب الحقنة من يده وهو يصيح :

– أسرع ؟

فلما حقنت الطفلة بالدواء المنبه ، عاد تنفسها يتردد في انتظام ، وسرعان ما خاط مايكل الجرح ..

ثم طلب الضمادات ..

وناوله الدكتور فاريل إياها في صمت

وفي دهشة جامدة راح يرقب هاتين اليدين الثابتتين القويتين وهما تلفان الضمادات والاربطة حول الرأس الصغير ..

ثم تثبتانها في موضعها الأخير ، وأزيحت الاغطيـة إلى الخلف ، وكانت الطفلة على قيد الحياة ؟

وانتصب الرجلان في وقفتهما ، ثم رفعا الاقنعة ونزعا القفازات ، وراحا ينظفان الآلات والاجهزة التي استخدماها ، ومضيا معاً إلى المغسل يغسلان أيديهما في صداقة وود .

بينما انتظر مايكل صامتاً حتى يتكلم الدكتور فاريل .

واخيراً قال الكهل وفي صوته رنة اعجاب وتقدير :

- لقد قمت بعمل بارع ..

فقال مايكل وهو يجفف يديه ومرفقيه في إحدى المناشف :

- أرجو ان يكون الأمر كذلك ؟

- أظنك اخصائياً في هذه الجراحة ؟

- نعم .. واحسب الآن انه ستكون للطفلة فرصة قوية للحياة ؟

وكان فاريل يتأمل قطرات الماء المتساقطة من أصابعه في تراخ ..

عندما قال :

- لا ريب أن عملك هذا يوحي اليك بالشعور بأنك قادر على التحكم في مصائر الناس .

فسأله مايكل في دهشة :

- هل تشعر أنت بذلك عندما تنقذ مريضاً من الموت ؟

فأجاب الطبيب العجوز :

- كلا بلا شك ، ولكني أحـــاول أن أجدد شعورك أنت ، انني قد يسرني أن تشفى الفتاة ، لما في ذلك من توطيد سمعتي الطبية ، ولكن فيما

عدا ذلك فإن الأمر سواء لدي ، ان تشفي او تموت ..

وكان فاريل يرمق الاسارير المنتظمة ، وذلك الجبين المرتفع الذي يدل على ذكاء خارق .

بينما كان مايكل يرتدي سترته ، وهو يفكر أنـه مهما يكن من أمر فلم تكن الاثرة او الطمع في الربح الشخصي هما اللذان دفعا هذا الرجل إلى التوقف وانقـاذ طفلة صغيرة من الموت ، بينما يعرضه ذلك إلى اكتشاف جريمته حتماً ..

فما الدافع له على ذلك يا ترى ؟

أهو التفكير عن ذنبه ؟ .

أتراه بعد أن قضى على حياة تلك المرأة ، شعر بأنه يجب عليه أن ينقذ حياة أخرى بدلها ؟

أم انها مجرد استجابة سريعة لواجب المهنة عند الطبيب ؟

انه يبدو كما لو كان قد أقسم يمين المهنة للتو واللحظة ، ام لعلها كبرياؤه وزهوه واعتزازه بمقدرته وكفاءته .

كلا .. إن الامر في نظر فاريل أكثر من ذلك بكثير ، انه جنون العظمة ؟

ولكن من ناحية خاصة ، فبعض المصابين به يحسبون من انفسهم اباطره وملوكاً ؟ ولكن هذا الرجل ، هذا الطبيب العبقري ، كان من اولئك الذين يعتقدون في قدرتهم على محاكاة الآلهة في تحكمها في مصائر البشر ، وتقرير حياة هذا وموت ذاك ..

نعم . إنه من هذا الطراز ، وما أشد خطر مثل هؤلاء ؟

واجاب مايكل على ملاحظة فاريل الاخيرة قائلاً :

-- اتظن ان كل انسان غيرك يفكر مثل هذا التفكير ؟

فهز فاريل رأسه في اسى وقال :

– إلا أنت ، انني لا اتكلم عن الشواذ ، بل عن الرجال العاديين ، ذوي العقول السليمة ؟

والقى نظرة سريعة على وجه الجراح ، وقد تصلب حتى غدا كأنما نقش من الحجر الصلد ، ثم استطرد :

– دعني اقولها لك كلمة صريحة ، إن الوعاء الذي نستقي منه نحن معشر الناس الطبيعيين ، الخبرة والمعرفة ، واعني عقولنا ، هو من مادة متينة قوية لا تتحطم قط ، اما الآخرون ، مثلك ، فإن لديهم أشبه بقدح من البللور النفيس الذي لا يلبث رغم علو قيمته ان يتحطم في يسر وسهولة ، وللوهلة الاولى ، وفي هذه الحالة فإن من الخير للمجتمع ان يلقي به بعيداً إلى غير رجعة ، بدلاً من أن يبقى حطاماً مقلوباً على أحد الارفف ، يهدد الناس جميعاً بالخطر . .

وكانت كلمات الطبيب الاخيرة زاخرة بالمعاني التي لم تغب عن فهم جويس وكان في انتظاره لحكم هذا الرجل العجوز ، الذي يعلم انه سيكون عميق الاثر في حياته كلها ، قد قدر احتمالات كثيرة ، غير ان احدهـا ليس من نوع النتيجة التي وصل اليها الدكتور فاريل الآن ، ومع ذلك فقد قال الرجل ما قاله دون ان تنم نبرات صوته على انه قضى عليه بالموت . . بأن « يلقى به بعيداً إلى غير رجعة » ، بل كان كأنما يقرر حقيقة واقعة اليمة . .

وأجاب الطبيب جويس في شيء من الترفع :

– انني لا اوافق على الصورة التي رسمتها الآن ، فـإن الطبيب وهو يعالج حالة معينة ويصل بمريضه إلى الشفاء او الى الموت ، فـإنما يفعل ذلك في حياد اعمى ، دون ان يدخل في تقديره هل يستحق هذا المريض الحيـاة او الموت ، أو يستخدم شعوره بالعدالة ، اما الذي فعلتـه اليوم ، وأنت تعلم عن أي شيء أتكلم ، فقد كان عدلاً ، كان يقظة العدالة في نفس الطبيب ، بعد طول سباتها خلال اعوام طويلة من مزاولة المهنة ، لقد تجردت اليوم

من شعور الطبيب ، وارتديت شعار القاضي ، فأجريت العدالة كما ينبغي أن تجري ..

فساد الصمت لحظة طويلة كان فاريل خلالها يحدجه بنظرة متفرسة ، وما لبث أن تناول سترته فارتداها وهو يقول بغير اكتراث :

– إنه جنون العظمة ، لقد كان تشخيصي صحيحاً ، فأنت مجنون !

وفي تلك اللحظة تصلب جسم مايكل ، فقد بلغ مسمعهما خلال الباب المغلق ، صوت واضح النبرات يقول :

– من هو صاحب السيارة التي تقف في الخارج ؟

وكان فاريل هو الذي وثب إلى الباب ففتحه في حذر .

وإذا به يرى شرطياً من راكبي الموتوسيكلات ، يتحدث إلى الجالسين في الردهة .

على حين كانت الأم ، ومسز روبرتس جالستين في صبر واستسلام ، تنتظر فتح الباب ومعرفة ما تم للطفلة ؟

وسمع فاريل وراءه صوت مزلاج الباب الخلفي للمطبخ يفتح ..

فلما أدار رأسه قليلا ..

ألفى نفسه وحيداً ..

وكان في قرارة نفسه بالغ الاعجاب والتقدير للغريب الراحل .

فغمغم يقول في أسى :

– ها قد قضى جراح عبقري !

ثم ابتسم راضياً ، وفتح باب الردهة على سعته !

وعندئذ اندفعت الأم نحو المائدة التي ترقد عليها ابنتها ، وما لبثت أن قالت :

– إنها أحسن حالاً يا دكتور ، أليس كذلك ؟

– بلى .. فقد زال الخطر عنها ؟

- لقد كان عظيماً ..
- من هو ؟
- زميلك الطبيب ، ترى ما اسمه ؟ انني لا اعرفه ؟
- آه ! هو ؟ ولا أنا ..
- سوف اذهب إلى بيته لشكره ، وأين يقيم ؟
- لست أدري بالمثل .
وكان الشرطي يتقدم منه ، ومفكرته في يده ، قائلاً :
- هل أنت صاحب السيارة التي تقف بالخارج ؟
- كلا ..
- من هو صاحبها إذن ؟
فرمقه الطبيب في استياء وقال :
- لست أدري ، لماذا ؟
- لقد اوقفها في الطريق دون ان يضيء مصباحها الخلفي ..

ثم هتف :
- حتى كدت ارتطم بها ..
فبدا الارتياح في عيني فاريل :
- آه ! أهذا كل شيء ؟

* * *

راح مايكل جويس يقود سيارته في الطريق الريفية المقفرة ، دون أن تخامره أية فكرة للفرار ، فقـد نسي ذلك الشيء الذي لا يزال ملقى فوق المقعد الخلفي

ولم تعد به ذرة من الخوف من البوليس ، أو من عواقب ما أقدمت يداه ،

وإنما كان عقله منصرفاً إلى دراسة مسلكه وتصرفه في الأمر من مبدئه إلى نهايته .

وكان لا يفتأ يستعرضه مرة بعد مرة ، في نظرة المتفرج المحايد الذي يريد ان يصدر قراراً عادلاً ..

فكان في كل مرة يصل إلى نتيجة واحدة ، لقد رسم خطة هذة الجريمة وارتكبها في رباطة جأش وسكينة غريبة .

والقتل في حد ذاته يخرج القاتل من حظيرة القانون ، ومن حظيرة الأفراد الطبيعين ، ولذلك فإن مجرد ارتكابك هذه الجريمة ، مهما كانت دوافعها ، يخرجك من تلك الحظيرة ، ويدل على أنك شخص منحرف العقل ، على انك شخص مجنون .

ولكنه لا يستطيع أن يقر ذلك ، انه لم يكن مجنوناً ، لقد كان كامل كأي شخص آخر ، وقد دلل على ذلك منذ قليل ، أفهل كان في وسعه ان يجري تلك الجراحة الخطيرة لو كان مجنوناً حقاً ؟

وعاد وجه الطالب في قاعة المحاضرات ، يتراءى له وهو يقول : « انه ككل المصابين بجنون العظمـــة .. » ثم قوله : « هل كان في مستشفى المجانين ؟ » .

وتلاه وجه كات المتقلص وقد علاه الفزع ، وهي تصيح : « انك لن تنجو من العواقب قط ، إنك مجنون خطر ..

وتتابعت الوجوه أمامه ، إيما والدكتور فاريل وكات ، بل انه ليستطيع ان يسمع اصواتهم ، كانت إيما حزينة وتقول :

« أواه يا مايكل ! لماذا قدر علينا أن يحدث لنا ذلك ؟ لقد حاولت أن أقنع نفسي بأن شيئاً سوف يحدث فتستقيم بـه الأمور ، ولو اني كنت واثقة من أن شيئاً كهذا لن يحدث قط .. »

كلا . لقد اختلط الأمر عليه ، فإن ايما لم تقل هذه العبارة ، وإنما هو

الذي قالها ..

وقد قال الدكتور فاريل :

« من الخير للمجتمع أن يلقي بالقدح بعيداً إلى غير رجعة بدلاً من أن يبقى حطاماً مقلوباً على أحد الارفف ، يهدد الناس جميعاً بالخطر .. »

وقالت كات :

– « إنك تهذي كالمجانين ، بل انت مجنون . »

هذه الكلمات لا تزال تدوي في أذنيه ، فقد ظلت كات ترددها طويلاً ، وها هي لا تزال تتردد في مسامعه مع هدير المحرك المتصل ..

وهي الآن لا تصدر من كات فقط ، وإنما تنبعث من الاصوات المختلفة التي لا حصر لها ، فكان كل منها يهتف به : « انت مجنون .. انت مجنون ... »

وسرت الرعدة في بدنه ، انهم جميعاً على حق .

وهو إذ يقتنع اخيراً بذلك ، وبأنه مجنون حقاً ..

فإنه يشعر لحظة براحة وسلام عميقين ، كالتي شعر بهـــا ذات مرة مع إيفا ..

وأوقف السيارة ..

فكفت الاصوات عن الهتاف ..

وكان السكون شاملاً في تلك القفرة ، فوق صخور الشاطىء الجرداء ، المختفية خلف غلائل الضباب ..

أما فوق البحر ، بعيداً عن الشاطىء ، فقـــد انقشع الضباب وبدت الامواج تتألق في ضوء القمر وهي تتابع في خطى وئيدة .

ووقف على حافة الشاطىء يراقب الامواج وهي تتلاطم تحته على بعـــد سحيق .

وكان يجد راحة بالغة في رؤيتها ، وسماع صوت ارتطامها بالصخور ، رتيباً متتابعاً ...

راحة فهم مدلولها ومعناها ، ورحب بها وتاق اليها ..

وترنح في موقفه ، فحاول ان يعتدل ويثبت قدميه ..

ولكنه ما لبث ان كف عن المحاولة ، واختلطت السماء والامواج امـام ناظريه ، واندفع الهواء يرطب وجهه بلمساته الباردة ..

وكان المحيط يرتفع صوته ..

وعندئذ فتح ذراعيه كأنما يهم بمعانقه ..

وأطبقت المياه ثانية فوق رأسه ..

وعاد الشاطىء قفراً موحشاً من جديد ..

– تمت –